محمد كمال محمد

الجــراد والــزقــاق

روايــة

حين ألقى زاهر شاهين السؤال على أخته أوصاف فى زيارته لها .. توقع الدهشة والاستغراب ، فيما أعتراه الخوف أن تكون مع الزمان قد نسيت ..

سنوات فاتت من الزمان لايدرى عددها الآن ، ويتعجب .. يبرق الخاطر فى رأسه ملحا ويغيب .. تستغرقه الهموم وصراعات العيش .. تخالجه الذكرى البائسة..

يسائل نفسه لائما ، كيف غاب عنه أن يعرف يومها .. هل باغته الخبر ، فذهل عن معرفة السبب .. أم غفل لحظتها عن أهمية الأشياء التى صاحبت الرحيل؟

لقيه أحدهم - ربما كان زميل عمل - يصعد الكوبرى العالى كما سماه أهل المنصورة .. بعد غيابه عن المدينة فى عمله .. نسى وجهه الآن واسمه ... مد له يده يقبض على يده متأثرا يتمتم معزيا :

« لم تلحق الجنازة للأسف .. ليتك جئت قبل ساعة واحدة ! »

كان الوقت عصرا وقتها ..

- قولى يا أختى .. ماذا كان المرض الذى ماتت به أمى .. أنت تعرفين بالتأكيد ؟

لاتعرف أوصاف بالتحديد نوع المرض .. من بلدة نبروه التى تعيش فيها مع زوجها ، جاءت إلى المدينة لزيارة أمها ، فى ضحى يوم شتائى قاسى البرودة..

كانت أمها تتوجع فى رقدتها على حصيرة حجرتها المجاورة لحجرته .. لم يكن هناك بسيونى الدولتلى زوجها..

كيف مرت الساعات عليها والوجع يتزايد ، دون أن تعرف أخته طبيعة الحالة ..

كيف غادرت البيت متظاهرة بأنها أصبحت فى حالة تسمح لها بالخروج ، لاضطرارها إلى انجاز حاجة عاجلة .. وإن كان شحوب وجهها ينبئ بغير الحقيقة .. ثم الجارة التى جاءت تنهى خبر دخول أمها المستشفى .. تطمئنها وتوصيها ألا تفكر فى الذهاب إلى هناك .. وأن تعود إلى زوجها فى بلدته ... فهى لن تتأخر كثيرا..

قالت أوصاف فى حزن :

ـ كانت تعرف أنها ستموت هناك .. لكنها شاءت ان تقابل الموت بعيدة عنا .. وحيدة ..

تعجب كيف طوال السنوات ، ظل مستلما للصمت الثقيل .. مع تحرقه للجواب :

كيف ماتت ؟

* * * * *

بضعة كراسى من الخيزران صفت متقابلة على جانبى الزقاق الضيق.. لصق حائط البيت ، دون انارة هناك ، غير ضوء الزقاق الخافت يأتيه من الشارع الواسع..

جاء بعضهم يعزونه .. وكان يتقبل العزاء متماسكا ، فى سنه الباكرة .. لم يكن من جاؤوا أقارب .. فهو لم يسمع من أمه يوما أن ثمة أقارب لهم .. لم يكن هناك قرآن يتلوه قارئ .. وكان الصمت يسود المكان..

دار بعينه فى الحضور .. لم يجد بينهم صديق الزقاق مرسال دحدح..

عندما خلا المكان بعد وقت قصير نهض ليدخل البيت .. لحظ أحدهم يتطوع ليعطى نقودا لصاحب الكراسى الذى جاء يستعيدها .. كان جيبه خاليا من النقود .. لم يقبض راتبه بعد فى شهره الأول لتسلم العمل الذى اغترب فيه بالمدينة البعيدة.

انقذف داخل حجرة الطابق الأرضى ، التى تجلس فيها أخته مطرقة تتشح بالسواد الذى استعارته من حسيبة صاحبة البيت ،وإلى جوارها لمبة الغاز التى شحب ضوؤها ..

بدأ يبكى .. يبكى طويلا ... وينتحب ..هل هربت من شقائها ؟ أيأسا آثرث الانسحاب بعدما اشتدت قسوة اللطمات ؟ .. أخشية أن نسمع الأنين تحت مطارق الحرمان ؟

أضناك الألم من أجلنا يا أمى ..

فى الصباح قبل أن يذهب إلى ملجأ الأيتام .. ليرى أختيه .. قابله على رأس الزقاق محمود العزبى ، زميله القديم فى المدرسة الإلزامية التى تركها ليلتحق بالمدرسة الأميرية ذات المصروفات .. قال له محمود العزبى بصوت حاول ان يكسوه الأسف :

ـ مات مرسال بعد سفرك بيومين..

وفهم زاهر لماذا لم ير مرسال بين المعزين فى المأتم ..

لم يخف عليه نبرة الشماتة فى صوت محمود العزبى .. كأنما يستكثر عليه صداقة مرسال .. صديق الزقاق..

ودمعت عيناه ..

قبل أختيه واحتضنهما ، بعد أن سمحوا له بزيارتهما .. لم يخبرهما

بموت أمهما.. ربت على ظهريهما فى حنان وقال :

ـ سأطلب اخراجكما من هذا المكان ..

تعلقت الأختان بكمى قميصه منفعلتين لاتصدقان .. متوسلتا النظرة.. هرول مسرعا إلى حجرة الإدارة ..

فى طريق عودته ترافقه أختاه .. مر بشونة القطن المجاورة لشريط السكة الحديد .. لمح على بابها بسيونى الدولتلى خفير الشونة ، بيده عصاه الغليظة .. ماج صدره بالحقد والكراهية .. والألم .. أدار وجهه متحاشيا النظر ناحيته ..

ناداه بسيونى:

ـ زاهر ..

لم يلتفت واستمر سائرا فى طريقه .. قال لأختيه :

ـ لاتلتفتا !

لحق به بسيونى .. مد له يده معزيا :

ـ لم أعرف الا فى صباح اليوم .. أنت تعرف .. منذ تشاجرنا أنا وأمك .. لم أدخل البيت ..

قال زاهر مشيحا :

ـ ولن تدخله بعد ما ماتت !

لم يستطع أخفاء مشاعره تجاه بسيونى .. تحرك مبتعدا .. أمسكت أخته بيده مرتعشة تسأله :

ـ هل ماتت أمى ؟!

لم يرد ..

انفجرت فى البكاء .. وتبعتها أختها بصوت عال ..

كان فى الدوامة ...

ـ لماذا فعلت ذلك ؟!

فى انكسار قالت أمه :

ـ لأبعدهما عنه !

ـ أهانتا عليك ؟!

ـ أحميهما من الجوع .. أو الخدمة فى البيوت كما أراد !

كانت آثار عاصفة الأمس بادية فى عينيها لاتزال :

ـ بسيونى يريد أن تخدم أختيك فى البيوت ..

انزعج وحملق ذاهلا .. عندما تمالك نفسه قال مدمدما :

ـ نعم ! .. ليقبض أجرتهما .. مثل بناته الثلاث ..

اهتاج صدره بالغضب عندما رأى أمه تمسح بطرف شالها دموعها مقهورة بائسة .. صاح :

ـ سأقتله ان حاول أن يفعل ذلك .. سأقتله !

خلفه كان يقف بسيونى الذى دخل البيت دون أن يحس به أحد .. لمح زاهر فى عينيه الضيقتين الشرو الوعيد قبل أن يسرع خارجا ..

جاءه العسكرى بصحبة بسيونى ليأخذه إلى قسم البوليس.. تعالت صيحات أمه لبسيونى :

ـ حرام عليك ! .. ماذا فعل لتشكوه للبوليس .. يا ظالم !

رشقها بسيونى بنظرة قاسية :

ـ سأريك أنت وابنك !

هناك فى قاعة فسيحة بالطابق الأرضى .. كان الصول الأحمر الوجه يقبع خلف المكتب القديم ، مكتنز الوجه .. صارم الملامح :

ـ تعال يا ولد ! .. تهدد زوج أمك بالقتل ؟!

لم يفتح زاهر فمه من الخوف والرهبة ..

هوى الكف الغليظ على وجهه بلطمة شديدة .. تراجع لها إلى الخلف .. نظر تجاه بسيونى الواقف فى ركن القاعة مبتسما فى شماتة وبغض .. ولمح أمه خلف قضبان الشباك الواسع تلمع الدموع على خديها ..

كاد أن يبكى .. لكنه حين رأى خلف الشباك الآخر محمود العزبى يرميه بنظرة شامتة لايدرى سببا لها زم شفتيه بقوة ليمنع الدموع ..

نهض الصول من خلف المكتب وخطا نحوه صارخا يظن زم شفتيه تحديا :

ـ يا ابن الكلب !

هوت اللطمة الثانية أشد من سابقتها ..

ادار وجهه للحائط ليدارى دموعه بينما ارتفع صياح أمه من الخارج :

ـ كفى لاتضربه .. النبى شفيعك لاتضربه !

واختنق صوتها بالبكاء ..

عاد زاهر تلحق به أمه .. انفلت من باب البيت مسرعا لأختيه فى الحجرة .. صاح منفعل النفس بالقهر:

ـ لن تخدما فى البيوت .. لن يحدث هذا أبدا .. مازلت أبحث عن عمل سأجده مهما كان نوعه ..

ولم يستطع حبس دموعه الغزيرة .

منذ كان صبيا وبسيونى الدولتلى يدخل حياتهم كزوج لأمه.

كان يتألم كثيرا ..

* * * * *

كانت بيوت الزقاق أربعة متقابلة .. بيت خديوية بطابقيه : الأرضى اصطبل عربة الحنطور والفوقى من حجرتين تسكنه هى وزوجها مرسال دحدح .. والبيت الملاصق ذو الطابقين الخالى دائما لايشغله سكان الا فيما ندر ، يملكه طلبة العزبى جناينى البلدية .. وصاحب المشتل الكبير جوار سكة حديد الفرنساوى فى اطراف المدينة ملاصقا لجبانة الشيخ ضرغام ..

وثمة بيت أخر ذو طابق واحد يمتلكه أيضا فى نهاية الزقاق ،جاوره بيت من طابقين يسكن زاهر وأختيه وأمه حجرتيه الأرضيتين .. وتسكن الطابق الفوقى حسيبة صاحبة البيت ، وزوجها فوزى سبرتو منادى موقف السيارات فى ميدان المحطة.

على ناصية الزقاق مقلة عبده الويشى .. يقابلها على الناصية الأخرى دكان انور حجى الخياط ..

وقبالة البيت الذى يسكنه زاهر ثمة عنبة تتسلق فروعها حائط الأصطبل وتمتد تعريشتها إلى « التراسينة» ، الشرفة الخشبية الخضراء اللون .. ترى فيها خديوية مطلة برأسها من فوق التعريشة على الزقاق أغلب أوقات النهار وفى يدها السيجارة المشتعلة .. وتبرق سنها الذهبية فى فمها حين تتكلم ..

كانت عربة الحنطور تسد الزقاق الضيق فترة وقوفها أما باب الأصطبل الواسع ، بينما يفك مرسال حصانها ويجرها إلى داخل الأصطبل فى نهاية اليوم بعد ادخال الحصان .. يتوقف الداخل للزقاق والخارج منه حتى يخلو الطريق.

* * * * *

كان زاهريلوذ بمرسال الذى يجد عنده نوعا من العطف والأسف لتوقفه عن الدراسة فى المدرسة الألزامية ولواقعه الصعب هو وأمه وأختيه .. يركب فى جواره أحياناً على مقعد الحنطور المرتفع .. يعطيه الكرباج الطويل يفرقع به جنب أذن الحصان ليسرع فى السير .. يجد متعة حين يستوقفه أحد الأفندية ليركب الحنطور .. وينظر فى فضول إلى القروش فى كف مرسال حين يأخذها من الزبون !

يقول مرسال لزاهر بينما يقف بالحنطور فى أحد الشوارع لانتظار الزبون :

ـ أمك طيبة وجميلة .. وحلوة اللسان .. لم أسمعها يوما تنطق بكلمة شاتمة لأحد ولا لأولادها أوقعها سوء البخت فى بسيونى الدولتلى ..

يضيف :

ـ أعرفه هذا الرجل قبل أن يشتغل خفير الشونة .. كان يقف بعربة يد عند كوبرى كفر البدماص فى البحر الصغير يبيع الخبز والطعمية .. خيبة الله عليه ! .. كان يترك العربة ساعات طويلة ليدخل قهوة محرز المجاورة ويضيع فى دخان الحشيش .. اشتغل فرانا فى فرن الأحول فى عزبة سيدى يونس .. وكان يرابط فى قهوة هرماش أمام ملجأ العجزة يدخن الجوزة حتى تحمر عيناه .. ويجئ فى الليل للزقاق يمضغ الأفيون !

يسرح زاهر بخياله يرى أمه فى طريق عودته من المدرسة قبل أن يهجرها ـ متخبطا فى طريق يمتلى بالعثرات واليأس ، خاليا من اليد الحانية التى تأخذ بيده ـ واقفة فى بعض الأيام أمام عربة اليد بدلا من بسيونى ، تبيع الطعمية والأرغفة .. أمه التى كانت عزيزة غالية عند ابيه ! .. يشتعل الغضب فى صدره .. يسألها عندما تعود فى العصر

للبيت ، لماذا تقبل هذا ؟ وأين الرجل ؟ وماذا يفعل ليتركها مصلوبة متعبة طوال الساعات أمام عربته ؟ .. لماذا عليها أن تطيعه غصبا ، وهو غير مضطر إلى الإنشغال بعمل آخر يتعلل به ؟ .. أمن أجل الأرغفة الحاف أحيانا المصحوبة بجبن المش أحيانا أخرى ؟!

يسمع مرسال يردد :

- أبوك كان رجلا طيبا مؤدبا .. عزيز النفس مع فقره ،

كان مرسال يدعو زاهر ليجالسه خلال الأيام التى لايخرج فيها للعمل بالحنطور .. يفرش حصيرة على باب الإصطبل ويطلب منه قراءة شئ من حكايات الكتب..

يختار له زاهر كتاب ألف ليلة وليلة .. وقصص السندباد البحرى .. وكان يمربهما كثيرا محمود العزبى قادما من مدرسته بحمل حقيبة الكتب .. ويلبس السترة والبنطلون القصير .. يرى زاهر فى عينيه الرماديتين بريق التحدى والهزء والاستخفاف كأنه ينظر إلى كلب ضائع !

وكان زاهر يستغرب ذلك ويتحير فى فهمه ! ..

سمعه محمود العزبى يقرأ مرة كلمة الجزر فى قصة السندباد مكسورة الجيم مفتوحة الزاء .. سخر منه قائلاً بصوت مرتفع بينما يعبر الزقاق من جواره :

- الجزر بضم الجيم والزاء .. جمع جزيرة يا جاهل !

آلمت زاهر نظرة مرسال .. وامتلأ صدره بالنقمة على محمود العزبى..

قال مرسال :

- معجب بنفسه ..

قال زاهر :

ـ لكنه هزيل الشخصية ..

ـ دعك منه ..

وجد زاهرنفسه يشكو لمرسال مشاكسة محمود التى كان آخرها اعتراض طريقه فى الشارع بالدراجة المستأجرة يسد عليه الطريق ويفرمل فجأة امامه بالدراجة وليقع زاهر على الأرض .. بينما انطلق محمود العزبى مسرعا بالدراجة يطلق قهقهات السخرية والتحدى !

ـ ماذا بينى وبينه ! .. لا أدرى !

قال مرسال :

ـ أظننى اعرف سبب كراهيته لك !

ـ ما السبب ؟

ـ تجاهلك له ..

قال زاهر :

ـ فى الحقيقة لا أشعر نحوه بالود .. منذ أن ظل يشمت بىّ لإنقطاعى عن الدراسة فى المدرسة الإلزامية .. ومعايرته لى باننى لا أستطيع دفع المصروفات لألتحق مثله بالمدرسة الأميرية ..

ـ وهناك أشياء تبعدنى عنه .. نظرة الاستعلاء التى يقابلنى بها .. وأيضا هناك شئ قد يبدو بسيطا .. لكنه يضايقنى..

ـ ماهو ؟

ـ كلما مر بباب بيتنا المفتوح يلتفت نحو الحوش الطينى باز دراء مبتسما فى استخفاف .. وربما احتقار !

ضحك مرسال وقال :

ـ سذاجة منك ..

ثم مازحا :

ـ ألأن حوش بيتهم مرصوف بالبلاط .. وليس الحوش وحده بالطبع .؟

عاد مرسال يضحك :

ـ تصور صبيانى .. لاتفكر فيه ..

ازرق وجهه مرسال فجأة .. كان مصابا باعتلالات رئوية .. تنتابه حالات اختناق حادة .. يقول لزاهر شاكيا ، انه أقلع عن التدخين ، ولا يزال يعانى آثاره ..

بعدما تزول عنه النوبة يغمغم فى استسلام :

ـ الدنيا لاضمان فيها لشئ .. أقول لك لاتفكر فى أمر محمود العزبى .

لكن زاهر لم يستطع ان يمنع نفسه من مسلك محمود العزبى تجاهه كان يقول فى نفسه : انه لاشك يعرف مثل غيره من أهل الزقاق بأمر اختيه نزيلتا الملجأ ..

يرى زاهر ذلك فى عيونهم فيتداعى متضائلا فى داخله .. ويطوى صدره على المرارة .

وكان يجد نفسه مدفوعا لصداقة مرسال دحدح .. الذى لايجد غيره فى الزقاق ـ برغم فارق السن الكبير ـ يحس بجانبه بالراحة لنفسه القلقة..

كان أحمد العزبى الأخ غير الشقيق لمحمود العزبى ، يجئ للزقاق فى أغلب الأيام بقوامه الممشوق ووجهه الأسمر الذى يختلف فى لونه عن وجه أخيه كان يرتدى لباس كتائب الوفد : القميص الأزرق والبنطلون والحبل الأبيض المجدول يحيط صدره ويلتف حول كتفه .. يتأمل مرسال

دحدح مشيته الواثقة الناطقة بالقوة والفتوة .. يهز رأسه ويمصمص شفتيه .. يحدث زاهر فيقول :

ـ يذكرنى أحمد العزبى بأيام الشباب فى حى الحوار الذى نشأت فيه وكنت اسكنه قبل انتقالى إلى حى ميت حدر .. وزواجى من خديوية الأرملة.. واشتغالى حوذيا على عربتها الحنطور ..

يصمت ويتنهد :

ـ أين كان هذا الشاب أحمد العزبى أيام معاركنا المعروفة مع عساكر صدقى رئيس الحكومة .

يقول فى اسف :

ـ لا أتصور أن يهدده أبوه بالطرد من المشتل الذى يشتغل فيه ويجلب له دخلا طيبا من عرقه وكده .. أتدرى لماذا ؟ .. لأنه ينضم إلى كتائب « القمصان الزرق » فى حزب الوفد .. أهذا رجل يحب بلده ؟!

الوفديون منذ سعد زغلول لايعملون إلا لمصلحة بلدهم .. لو حكيت لك ماذا كنا نفعله أثناء حكم صدقى الذى كان يحكم الشعب بالحديد والنار لن تصدق !

استثار كلام مرسال فضول زاهر .. فسأله راجيا ان يحكى له ..

بدت نبرات صوت مرسال حزينة آسية عندما قال :

ـ مات أخى الذى كان يخطط لمقاومتنا البطولية لبطش صدقى المعروف بعدائه الشديد للوفديين وزعيمهم مصطفى النحاس .. كنت وقتها فى بداية الشباب .. أشتغل مع أخى فى نجارة الأبواب والشبابيك فى حى الحوار المشهور بانه قلعة الوفد .. وكان مصطفى النحاس يأتى للحى عند زيارته للمنصورة .. وينزل فى ضيافة محمود بك نصير

العضو الوفدى فى قصره على النيل ..

شخص مرسال ببصره أمامه يستعيد الأحداث .. قال :

ـ جاء مصطفى النحاس فى ضحى يوم يرافقه الوفدى المعروف سينوت حنا .. نزل من شارع البحر إلى شارع المدير وسط زفة من أهالى الحوار .. كنا فى استقباله على رصيف المحطة عندما قدم فى القطار بين المئات نهتف له .. أطل علينا من نافذة العربة التى يركبها رافعا يديه لرد التحية ... قذف أخى فى حماس بمنديله نحوه فسقط على أرض العربة .. انحنى الرجل والتقط المنديل وألقى به إلى أخى .. ارتفع صياح أخى فى هستيرية يهتف بحياة زعيم الوفد.

تدفق المئات من حى الحوار يرحبون بالنحاس .. التفوا حوله فى شارع المدير يحاول كل منهم مصافحته ..

فجأة احاطت قوات البوليس بالمتدافعين تجاه مصطفى النحاس .. اخترق أحد العساكر الجماهير المحيطة بالزعيم مسددا سونكى البندقية إلى صدره ..

فى لحظة احتضنه سينوت حنا لحمايته .. هاج الأهالى .. تدافعوا نحو النحاس يحيطون به أكثر .. سقط أبو الليل مريض الصدر تحت الأرجل وهو يحاول الوصول إلى النحاس ليحضنه .. فى تلك اللحظة هاجمت عساكر الخيالة القادمة من شارع البحر الأهالى يضربون الرؤوس والأجساد بالعصى .. بينما تعالى الصياح هاتفين بسقوط صدقى عدو الشعب..

صمت مرسال وتنهد وأرسل بصره فى الفراغ متخيلا :

ـ كلهم .. لايزالون أحياء أمام عينى الآن : مأمون صلى .. أبو ليلة

.. محمد الزهار .. الشيخ عبادة امام زاوية وابو النور .. مهدى العسال .. عفيفى الجزمجى الملقب بما شيست الجبار شجيع السينما لاحترافه المصارعة .. مصطفى الفسخانى .. أبو لمونة .. مهران شتا البقال .. كان هم صدقى كسر أنوف أهل الحوار .. وتحطيم معنويات النحاس عدوه اللدود ..

تطل خديوية على مرسال من التراسينة أثناء حكيه لزاهر .. تصيح فيه :

ـ كفاك جلوسا وقم اسعى لرزقك ! .. كل يوم والثانى تدعى المرض ويتعطل الحنطور .. مرة تقول : ليس عندى مزاج للشغل هذا النهار .. ومرة تقول : نريح الحصان يوما .. هل سنجوع لو أرحناه .. يا بليد! .. لابد أن أبوك كان من تنابلة السلطان ! يا تنبل !

لايرد مرسال بكلمة .. ويكتفى باطراقة طوال صياح خديوية بينما يتأذى زاهر لأجله .. يقول مرسال محدثا نفسه :

ـ ماذا تريد منى ؟ .. أتريدنى اشتغل ليلا ونهارا بالحنطور .. لأملأ حجرها بالفلوس التى لاتنفق منها قرش ! .. لاترحم ! .. الفلوس عندها تملأ مخلاة علف حصانها : ولا تشبع !

عندما يرى صمت زاهر والأسف الذى يخيم على وجهه يقول مبتسما :

ـ لايهمك سلاطة لسانها .. اننى اتسامح معها لأنى أخطأت كثيرا فى حقها فى بداية زواجنا .. سأحكى لك فيما بعد !

يصمت ويهمس لنفسه :

ـ لم ينعم الله علينا بالخلف .. ليخفف من عصبية خديوية .. حكمته!

تعود خديوية فى يوم آخر تسلط لسانها بالكلمات الجارحة .. لائمة مرسال لضآلة إيراد الحنطور اليومى .. «اتراه عاد إلى تلك الأيام السوداء؟!» .

يضحك مرسال ويقول :

ـ هذه البلها .. هل ترانى لأزال أملك الشباب والعافية .. لاعود إلى ماضى الأيام ؟!

يلتفت إلى زاهر :

ـ سأحكى لك : كنت أذهب إلى بيت هندية صاحبة عربة الكارو التى ورثتها عن زوجها ونفق حصانها .. نشأت العلاقة المعروفة بيننا.. كنت أركن الحنطور تحت شقتها وأفك الحصان وأعطيه لها لتشغيله على الكارو ! .. أقضى اليوم معها حتى العصر وعودة الكارو .. وأجى لخديوية فى الليل متعللا بقلة الزبائن ! .. فكرت كثيرا فى الزواج من هندية لاعيش معها فى الحلال .. لكنى اكتشفت أن علاقتها بى ليست لشخصى ولكن من أجل انتفاعها بالحصان ! .. امرأة لعوب مدربة تعرف كيف تسلب عقل الرجل !.

قهقه مرسال ضاحكا :

ـ وكان يوما ما رايت مثله .. يوم كشفت خديوية علاقتى بهندية !

عاد مرسال يحكى عن حى الحوار .. تلمع عيناه بالذكريات .. بينما كان زاهر يطيل النظر إلى وجهه طوال الوقت .. لايتصور ان هذا الرجل البسيط نجار الأبواب والشبابيك يمكن أن يأتى بتلك الأفعال التى يحكيها:

ـ كانوا يريدون محاصرة مصطفى النحاس فى زيارته للمنصورة ومغادرته قصر محمود نصير بك المسمى « بيت الأمة » والملاصق لقصر محمد الشناوى باشا قطب الوفد فى الدقهلية .. جاؤوا بوابور الزلط فى شارع المدير .. بعد نجاة النحاس من حادث السونكى الطائش ليسدوا عليه الطريق ويحولوا بينه وبين الأهالى .. اجتمعنا فى زاوية الشيخ عبادة وقررنا التصدى لعساكر الخيالة الذين بدأوا يهاجمون الأهالى فى شارع المدير والبطش بهم .. كان أبو ليلة الكهربائي يحضر لنا حزم الأسلاك الكهربائية ويسلمها إلى مهدى العسال ومحمد الزهار .. بينما كنا نسطو فى الليل على ورشة الخواجا موردخ النمسوى للمياه الغازية فى شارع المدير .. نحمل صناديق الزجاجات الفارغة ونصعد بها إلى أسطح البيوت ..نعبئها بالرمل الذى يأتى به الشيخ عبادة فى حجره ومعه مهران شتا من النيل القريب فى أيام الجفاف .. وكان أبو لمونة الذى كسرت ساقه ووضعت فى الجبس لسقوطه بين رصيف المحطة والقطار ليلة استقبالنا للنحاس ، يعاوننا فى تعبئة الزجاجات ويسلمها لنا .. بينما كان يحتفظ لنفسه بعدد منها فوق سطح بيتهم ..

كنا نربط اسلاك الكهرباء السميكة فى أعمدة النور بعرض الشارع على ارتفاع قليل من الأرض الإسفلتية .. ، ونرخى الأسلاك فوق الأرض .. حين يهجم علينا العساكر بخيولهم نجذب الأسلاك بقوة فتتعثر الخيول ويقع العساكر من فوقها .. فى حين كان هناك النسوان ومصطفى درويش فوق الأسطح يقذفون رؤوس العساكر بزجاجات الكازوزة المعبأة بالرمل .. بينما يتكاثر العساكر نسرع بالهروب لنختفى فى ميدان سيدى ياسين وحوارى سويقة ستوته الضيقة .. وفضاء سوق الثلاثاء فى

نهاية شارع المدير الذى تحميه كثرة البيوت .. وخلف وابور النور وفى جنينة على عبدالرازق.

وكنا ننهض مبكرين فى الصباح لنرى عن بعد آثار الدماء وشظايا الزجاج المتناثرة على اسفلت الشارع..

يضحك مرسال ويكمل حديثه :

ـ عندما كانوا يعجزون امام المقاومة يلجأون إلى حظر التجوال طوال النهار للعمال والصناع .. عدا تلاميذ المدارس .. وكنا نتحايل للذهاب إلى أعمالنا .. فنحمل الكتب والكراسات لايهامهم باننا تلاميذ يذهبون إلى مدارسهم !.. وعندما كان يقع فى أيديهم أحد العمال كانوا يجرونه إلى قسم البوليس ، ليعاقب يدفع عشرين قرشا غرامة ! .. وكان عقابا شديدا .. فالعشرون قرشا أيامها نادرا ما يملكها الكثيرون ..

يعود مرسال إلى الضحك ويقول :

ـ كانت مغامرة لا أنساها .. يوم ركبنا أنا وأخى والشيخ عبادة وامام صلى وعفيفى الجزمجى عربة حنطور من شارع داير البندر ، بعيدا عن عيون العساكر المرابطين فى شارع المدير .. وطلعنا إلى شارع البحر ومشينا بالحنطور فى بطء نرقب من بعيد وقفة مأمور البوليس ضخم الجثة مفتول الشارب على الرصيف المواجه لشارع المدير ومن خلفه النيل .. كانت عينه يقظة تتجه إلى شارع المدير الطويل ليأمر عساكره بالقبض على من يمر فى الشارع بعد حظر التجوال.

ولم يشعر المأمور إلا ونحن الخمسة وسادسنا حوذى الحنطور نطوقه ونهنال عليه ضربا بالعصى .. بعد أن أطاح بطربوشه من فوق رأسه الشيخ عبادة ـ ما أدرى لماذا الطربوش فى البداية ! ـ وقبل أن يتنبه احد

من الضبـاط لما يحدث ، صرخ أخى أن نلقى المأمور فى النيل ! .. فى اللحظة ذاتها سقط على الأرض برصاصة جاءته من ناحية شارع المدير .. ولم نضع وقتا وقد تزايد حماسنا وغضبنا فحملنا المأمور بين أيدينا والقيناه على منحدر الشاطئ وتركناه يتدحرج إلى أسفل .. وبينما كان رفاقى يقفزون إلى الخنطور الذى دار به الحوذى فى سرعة عائداً إلى شارع دابر البندر .. تراجعت أنا لأحتضن أخى الممدد على الأرض وأبكى..

سكت مرسال وأحنى رأسه .. ولمعت فى عينيه الدموع.. وظل زاهر صامتا يبدو على وجهه التأثر .. ورفع مرسال رأسه يقول :

ـ حكموا على بالسجن ثلاث سنوات .. مع أن المأمور لم يمت..

ابتسم مرسال فجأة :

أتذكر عبارة الشيخ عبادة وهو يقول :

ـ من حظ المأمور اللعين قلة ماء النيل فى أيام الجفاف .. والإ لغرق فلا نصلى عليه !

سأله زاهرمشفقا :

ـ هل سجنت ثلاث سنوات ؟

ـ خففوا الحكم بعد الإستئناف إلى سنة واحدة ..

*****

كان طلبة العزبى بعمامته الصفراء التى يرتديها الجنائنية يمر بمرسال وزاهر فى جلستهما فيغمغم بالتحية دون ان يلتفت نحوهما ..

يقول مرسال ممتعضا :

.. يلقى السلام من طرف أنفه .. له الحق ! .. فمن مثله فى الزقاق يملك بيتين وتأتيه رشاوى البط والدجاج فى يوم السوق من الجناينية .. ليغمض عينيه عن المتغيب والمهمل .. أليس رئيسهم .. أليس الباشجناينى الذى حج إلى بيت الله الحرام .. أبو سميرة التلميذة المدللة التى تلبس الغالى ، وتذهب للمدرسة فى الحنطور وتعود فى الحنطور .. العظمة والكبرياء لله يا طلبة !

والمسبحة فى يد طلبة العزبى يهزها وفق خطواته المتأنية !

وكان زاهر يرى طلبة العزبى فى شارع البحر بينما يركب الحنطور مع مرسال ، يشرف على جز الزوائد فى سور النهر النباتى .. وكان يلقاه فى يوم آخر قرب مكتبة البلدية يمشى إلى جوار المهندس راكب الحنطور ، وهو يتفقد النخل الملوكى والشجيرات فى جانب الطريق .. ويتوقف أمام الجناينية بينما يقومون بتسوية النجيل بالمقصات الكبيرة .. ويلقى لطلبة العزبى بتوجيهاته..

وكان مرسال يزعق من فوق مقعد الحنطور :

- السلام عليكم يا حاج طلبة ..

ولايسمعان رد التحية !

* * * * *

مع قسوة الواقع المعيش ومعاناته لم تطلب أم زاهر منه يوما أن يحاول الالتحاق بعمل ما .. أو يحاول التكسب ولوقروش قليلة بطريقة ما .. ليس لأجلها ولكن فحسب لينفق على نفسه ..

كانت صابرة لأقدارها قانعة بقسمتها فى الحياة .. مكتفية بالقليل

الذى يأتى به بسيونى فائضا بعد تكاليف المخدرات وغيرها .. تطعم بالحد الأدنى منه أولادها ... ليس إلى حد الشبع .. ولكن بما يسد الرمق ..

وكان زاهر ضائقا بحياة التعطل .. يحس أنه لايساوى شيئا ويستشعر الضياع وسط ما يحيط به ..

* * * * *

عندما بدأ زاهر عمله الأول فى ورشة شق الأخشاب الميكانيكية كان يغتبط بالقروش العشرة التى يقبضها فى نهاية الأسبوع .. يسرع بها إلى أمه .. تتأمل وجهه الوسيم المتعب وتكتم ألمها ..

كان عمله هناك حمل الأخشاب الطويلة من المخزن المجاور على كتفه العظمى ووضعها أمام ماكينة شق الخشب القائم عليها أحد العمال المدربين ..

هناك تعرف زاهر بنواسانى البيلى .. الشاب الوديع البشوش .. اللامع العينين بالذكاء والتوثب ..

كان نواسانى يساعد زاهر أحيانا عندما يرى التعب فى ملامحه من مشقة حمل الأخشاب .. كان يشفق على جسده النحيل الضعيف .. ويدرك ان ماحمله على العمل فى الورشة شدة الحاجة .. كان يضاحك عامل الماكينة ويوصيه بزاهر ..

بدأ زاهر يشعر بالود يتنامى بينه وبين نواسانى .. يوقن أنه يخصه دون غيره بالمساعدة قدر الإمكان ..

قال نواسانى لزاهر انه طالب فى مدرسة المعلمين .. يعمل فى الورشة

بالأجر الضئيل لحاجته إلى الإنفاق على نفسه ، فهو بلا أهل .. وقال إنه اختار الدراسة فى مدرسة المعلمين لمجانيتها .. وليضمن وظيفة التدريس عند التخرج ..

وكان زاهر يرى نواسانى يحمل فى جيب جلبابه دائما كتابا لا يعرف زاهر فحواه .. يتعجل مغادرة الورشة ليقرؤه فى جلسة تحت الضوء الخافت فى شارع البحر الهادئ ..

أحضر نواسانى ذات يوم عددا قديما من « مجلتى » اعطاها لزاهر قائلا :

ـ اقرأ فيها .. اقرأ .. لماذا لاتقرأ ؟! .. لى صديق يشتغل طاهيا عند أسرة ثرية ، يحضر لى عددا من هذه المجلة التى يشتريها أحد أفراد الأسرة ..ساحضرها لك لتقرأ.. لماذا لاتقرأ ؟! .. القراءة تجعلك تشعر بقيمتك الإنسانية ..

بدأ زاهر يلبس الجلباب القديم الذى هجره منذ سنوات .. وشبشب من إطارات السيارات يباع بقرشين أسوة بصبيان الورشة .. يتغدى مع نواسانى فى فترة الراحة بالخبز والطعمية واعواد الجرجير ..

وكان زاهر يوقن بانه ليس ثمة أمل فى الأمد المنظور .. فماذا يملك هو ليحقق هذا الأمل .. ماهى قدراته ليتحاشى الفشل المؤكد الدائم على طول الطريق ؟ .. وأين من يتقدم لمساعدته ويأخذ بيده فى مجتمع قاس غليظ القلب ؟

واستغنوا عنه بعد أسابيع قليلة لخفض النفقات !

* * * * *

وظل زاهر يذهب للعمل فى مكان ما لبضعة أيام « مكتب محام ..
دكان سمسار قطن ، ثم يتركه بغير ارادته .. ويعود محبطا للزقاق ..
يهرب من الأكتئاب بمداومة القراءة فى المجلات والكتب القديمة التى يمده
بها نواسانى .. ويجالس مرسال فى أيام راحته ونوبات مرضه..

عندما ذهب زاهر إلى دكان تنجيد الأثاث ليعمل صبيا ..كان آملا
أن يتعلم المهنة ليتكسب من ورائها فى مستقبل الأيام ..

بدأ يجهز للتنجيد الكرينة المصنوعة من سعف النخيل ، والقطن
وقطع الخيش .. يسلم تلك الأشياء لسيد زبيب صاحب الدكان .. ويدق
مسامير الأشرطة فى قاع الكراسى .. ويثبت السلك اللولبى فوقها
بالدوبارة ويسلم الكرسى لسيد زبيب يكمل التنجيد فى مرحلته التى لا
يجيدها سوى العامل المدرب ..

كان مستريحا لما يقوم به متطلعا للتطور وتخطى تلك المرحلة ..

كان سيد زبيب يرسله فى الظهيرة ليشترى لغدائهما رغيفين وقطعة
من الجبن الأبيض .. وظل الغداء لايتغير .. عدا يوم ذهبا فيه إلى بيت
عروس لتنجيد طاقم صالون .. فقدمت لهما فى الغداء السمك المشوى
والسلاطة .. وقال ليلتها لأمه أن آكل سمكا !

وأدرك زاهر بعد أن أمضى ثلاثة أسابيع دون أن ينقده صاحب الدكان
أجرا .. انه اكتفى باطعامه رغيف الغداء وغموس الجبن..

ولاشئ آخر ..

وكان راضيا ما دام هناك مهنة تنتظره ..

لكنه فى ليلة قال سيد زبيب بينما كان يغلق احدى ضلفتى الدكان :

ـ سأبيت الليلة هنا .. لأن أخى سافر ولم يترك لى مفتاح الشقة .

قال زاهر :

ـ هل تريد شيئا قبل أن تغلق عليك الدكان ؟

قال سيد زبيب :

ـ نعم .. ستشترى لنا خبزا وطعمية .. نتعشى معا ..

قال زاهر فى براءة :

ـ سأتعشى فى البيت ..

ـ لكنك ستبيت معى ..

فوجئ زاهر .. انتابه احساس بخوف غامض .. نظر إلى سيد زبيب فرايته نظراته ..

أخفى ارتيابه .. قال :

ـ سأبيت معك ..

انتبه زاهر فى ذات اللحظة إلى الفراش الذى أعده الرجل فى ركن الدكان من الكرينة والقطن وفرش فوقه قطع الخيش .. ولم يراوده فى غمرة الموقف الغريب المفاجئ شئ من التساؤل : متى أعد هذا الفراش وكيف لم يره ؟!

نظر إلى سيد زبيب وقال :

ـ هات النقود لأشترى الطعام ..

بدت فى عينى سيد زبيب فرحة خفية .. أخرج من جيبه قروشا ناولها لزاهر.

ما إن انفلت زاهر من باب الدكان ، حتى رمى النقود من يده .. واسرع يركض فى الشارع ..

* * * * *

كان ميخا ليدس صاحب البقالة فى حى ميت حدر ، الذى كان زاهر يذهب إلى دكانه فى بعض الشهور ببطاقة التموين لصرف مقرراتها .. يعطيه آخر النهار ثلاثة قروش مصحوبة بابتسامة تكشف عن سنه الذهبية الدقيقة ، عند ما اشتغل فى دكانه .. يقوم بتوصيل طلبات البقالة للمنازل فى حى ميت حدر وحى الحسينية يلبس الفوطة النظيفة ويركب الدراجة المعلق تحت مقودها صندوق صغير من سنابل الحديد .. مملوء باصناف البقالة ..

يدور بها على المنازل ..

كان يشترى بنصف قرش حلوى « براغيت الست » لأختيه بحبياتها الدقيقة الملونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، تغرى بالتهامها لتذوب فى الفم فى ثوان .. ويعطى أمه باقى القروش ..

عندما احتجبت براغيت الست عن أختيه بضعة أيام .. تساءلت أخته الصغرى نجدة ، لم انقطع عن عادته معهما !

قال زاهر :

ـ اشتهت نفس أكلة بسطرمة من دكان ميخاليدس .. لنتعشى بها مع البيض .. بدلا من أكلة المدمس كل ليلة ..

علقت أم زاهر :

ـ نعمة ! .. ما له المدمس ! قال زاهر :

ـ نحاول التغيير يا أمى !

اضاف :

ـ احتجزت نصف القرش عشرة أيام لأشترى البسطرمة ..

قالت أمه وهى تفتح ورقة البسطرمة :

ـ لكنها كثيرة .. اهذه بخمسة قروش فقط ؟

قال زاهر مبتسما :

ـ أكرمنى ميخاليدس لارضائى !

علقت أخته أمتثال :

ـ يرضيك لأن بطاقة تموينننا عنده !

قالت أمه :

ـ هو فى الحقيقة طويل البال مع أصحاب البطاقات .. ويتعامل معهم بصدق وأمانة !

قال زاهر ضاحكا :

ـ سأبلغه رأيك فيه !

قالت نجدة مازحة :

ـ أبلغه .. لعله يزيد الثلاثة قروش فيجعلها خمسة !

*****

دخل الرجل الأشيب لابس البدلة الأنيقة دكان ميخاليدس . إستقبله ميخاليدس مرحبا ويديه تحت صدره يفركهما فى احترام كبير .. أسرعت زوجة ميخاليدس فنهضت من خلف المكتب تعدل للرجل الكرسى الملاصق للمكتب .. حياها الرجل مبتسما وجلس على الكرسى يذب بمنشة ذيل الحصان الغالية حول وجهه ..

قدم له ميخاليدس زجاجة اسباتس الغازية .. تناولها الرجل وسأل ميخاليدس عن حال مقررات التموين عنده .. هل هى منتظمة ؟

أسرع ميخاليدس يقول بلهجته العربية المهشمة :

ـ البركة فى سعادتك !

هز الرجل رأسه فى رضا .. نظر إلي زوجة ميخاليدس التى ابتسمت له وقال :

ـ سأعمل على تزويدك بعدد آخر من البطاقات ..

عاد ميخاليدس يفرك يديه منحنيا قليلا :

ـ أشكر سعادتك !

خرج زاهر لتوصيل أحد الطلبات ..

عندما عاد كان الدكان خاليا من زوجة ميخاليدس .. ولم يكن الرجل هناك ..

عاجله ميخاليدس بزجاجة الويسكى قائلاً :

ـ اذهب أعطها للمدام ..

كانت شقة ميخاليدس فى البيت الخلفى للدكان..

ما كاد زاهر يمسك الزجاجة حتى تركها تسقط من يده .. لتتهشم وتسيل الخمرة على الأرض .. استدارصوب الباب وخلع الفوطة من على صدره وألقى بها فوق الدراجة الرايضة أمام الدكان..

*****

كانت وكالة أمين البهنسى لتجارة الفحم وحديد التسليح تجاور شادر الأخشاب الكبير الذى يملكه البهنسى الثرى المعروف .. يعلو الشادر والوكالة عمارة البهنسى القائمة جوار شريط السكة الحديد ..

وعن شمالها كوبرى القطار الموصل إلى بر طلخا ..

كان زاهر يعمل صبيا فى وكالة الفحم مع حسنى سمك الكواء السابق الذى يعمل كاتبا فى الوكالة .. يجلس خلف المكتب وإلى جواره آلة الطبع بالبا لوظة التى لايجيد استخدامها ..

كان يرى البهنسى يقف علي باب الشادر ، قصير ضئيل الجسم، يلبس الطربوش الطويل كأنما يعوض به قصر قامته ـ والبذلة الغالية يتدلى من صديريها سلسلة الساعة الذهبية ... يستشعر زاهر الرهبة والتهيب ! .. لايتصور لحظة يقترب فيها ـ مجرد اقتراب ـ من الرجل أو حتى يسمع صوته !

كان يقوم بقضاء احتياجات أمين البهنسى خارج الوكالة .. وكان راضيا بما يقوم به مغتبطا بالريال الأسبوعى الذى يحصل عليه ..

يرسله أمين البهنسى إلى بلانش المسيحية التى يحبها برسائله الشفهية .. تقف بلانش لزاهر خلف شباك الطابق الأرضى لبيتهم المواجه لمبنى المديرية .. يجاور المقهى الشعبى المزدحم برواد المديرية لقضاء مصالحهم ..

كان يقف علي الرصيف مقتربا من الشباك ليبلغ رسالة أمين لبلانش .. وكانت عينا الفتاة تلمعان دائما بابتسامة كلمعة صليبها الذهبى المتدلى على صدرها الناهد .. وكان وجهها الجميل ينطق بالسعادة عندما يحدد لها زاهر موعد اللقاء المرتقب فى رسالة أمين البهنسى ..

وكان يسرع بمغادرة مكانه حين يلمح فانوس شقيق بلانش بالطربوش القصير وبذلة السكة الحديد الرمادية الغامقة ذات الأزرار النحاسية ، قادما من ناحية الكوبرى السفلى المجاور للمحطة ، يحمل تحت إبطه بطانيته المطوية المحزومة بالدوبار .. يستخدمها غطاء اضافيا لمبيته فى استراحة السكة الحديد ، فى عمله كمسريا ..

فى جوار مضارب بهرند للأرز الواقعة بعد بنايات عزبة المنشية فى حى البحر الصغير .. كان ثمة حديقة مهجورة عدا بعض شجيرات

الجوافة كان يذهب إليها زاهر فى صحبة أمين البهنسى مرتين فى الأسبوع .. ليتفقد هناك اكوام حديد التسليح المخزون .. ويقطف ثمار الجوافة يعطيها لزاهر ..

وفى العودة كان يكلفه برسالة جديدة لبلانش ..

كان أمين البهنسى يذوب عشقا لبلانش التى كانت تبادله حبه وكان يفرح كثيراً حين يعود زاهر من عند بلانش يحمل اليه موافقتها بموعد اللقاء ومكانه ..

كان زاهر يتعب كثيراً فى توصيل كلامه لامين البهنسى لثقل سمعه .. كما كان يبدوا متوترا فى معظم الأوقات لمعاناته الصداع النصفى المزمن ..

ويوم زواج بلانش من زميل شقيقها فى العمل .. انتابت أمين البهنسى لحظة يأس مريرة .. فألقى بنفسه فى نهر النيل المجارو لبيتهم لينهى حياته !

*****

اعجب زاهر مشهد الغناء فى أوبريت مجنون ليلى ، بصوت عبدالوهاب وأسمهان فى فيلم يوم سعيد الذى تعرضه سينما عدن .. عندما دخلها بقرش فى « الترسو » أول ليلة للعرض ..

ظل زاهر طوال الأسبوع يقف فى الشارع جوار الجدار المرتفع الفاصل بين شاشة العرض ، يستمع إلي الغناء فى نشوة .. وكان ينتشى أكثر لصوت أسمهان وهى تهتف بلسان ليلى العامرية فى فرحة بلقاء قيس:« قيس » ... يجيبها صوت عبدالوهاب بلسان قيس سعيدا

بوجودها :

- « ليلى بجانبى ؟.. كل شئ اذن حضر ».

تنتاب زاهر مشاعر شتى .. يغادر المكان فيما لايزال مسحورا بالنغم والصوت والكلمات ..

فى الليلة الأخيرة لعرض الفيلم بينما كان يقف هناك .. شعر بيد توضع على كتفه .. وصوت نواسانى يقول

- أيها المفتون بعبد الوهاب وأسمهان .. ألم يكفك ليلتان فى هذا المكان !

- بل سبع .. أوحشتنى يانواسانى ..

تأبط نواسانى ذراع زاهر :

- ليلة أمس رأيتك من شباك حجرتى ..

اشار إلى بيت قديم في شارع السكة القديمة خلف دار السينما :

- هذا هو البيت الذى أسكنه .. سينقض راكعا على الأرض بعد أيام!

جذبه فى رفق ليتجها إلى شارع البحر وقال :

- تركتك فى نشوتك لم أرد أن أفسدها ! .. انتظرت حتى تنتهى الأغنية .. أعرف نهايتها لأنى اسمعها من شباكى .. قبل ان تنتهى كنت استسلم للنوم مسندا رأسى إلى قاعدة الشباك .. لشدة تعبى طوال النهار .. اشتغل حاليا فى عمل شاق حتى أكمل السنة الأخيرة فى المدرسة ..

- قلبى معك !

- عندما تزورنى يوما فى حجرتى ستجد نصف سقفها منهارا .. أسنده بخشبتين ! .. لست أدرى متى يتبدل الزمان ؟! .. نسعى لتغيير

واقعنا فى عجز شديد كأنه المستحيل ! ..نكتوى فى سعير الفاقة لانجد من يمد لنا يد الرحمة ! .. لهم الموائد ولنا الفتات.. مجتمع بلاقلب ! .. يدير ظهره للكتلة الصامتة التى تصرخ بغير صوت ! .. لحظة أمل نحتاجها لكى نتقبل الحياة !

فجأة سأل زاهر :

- هل قرأت مجنون ليلى لأحمد شوقى ، التى تسمع مشهدا منها فى الفيلم ؟ .. اقرأها .. الله يازاهر على مناجاة قيس لجبل التوباد الذى شهد غرامه بليلى :

« جبل التوباد حياك الحياه .. » وآه من البيت الأخير :

« قد يهون العمر الا ساعة .. وتهون الأرض الاموضعا »

ردد زاهر البيت خفيض الصوت .. لايدرى لماذا امتلأ قلبه بالشجن! قال لنواسانى :

- لقد حببت إلى القراءة .. أحاول ان اقرأ كثيرا .. أميل إلى الكتب التى تتكلم عن شقاء الفقراء .. وبؤس المحرومين .. والضائعين فى رحلة الحياة ..

قال نواسانى :

- ألفقر يرسم للانسان طريق حياته .. فيبقى محصورا فى الدمار لنفسى .. والقهر يلاحقه .. لايستطيع أن يرفع صوته بالشكوى أو يفضى بشقائه لأحد .. العالم شرير وقبيح .. تسحقنا جهامته ووحشيته..

قال زاهر :

- لكن أتعرف .. انى أقف متهيبا أمام الكتب المعروضة فى مكتبة

السروى ومكتبة الدميرى فى شارع السكة الجديدة ، لارتفاع ثمنها ..

أضاف فى أسف :

ـ تمنيت ان أقرأ كتب أحمد الصاوى محمد الذى اعجبتنى كتاباته فى « مجلتى »

ـ انه صاحب المجلة ..

استرسل زاهر قائلاً :

ـ كتبه فى المكتبتين تعرض باثمان مرتفعة .. « حياة قلب » « تاييس» و«المرأة لعبتها الرجل »و « الرقص على البارود »

ـ طبعات فاخرة .. لكن هناك كتبا جيدة غير كتب الصاوى فى طبعات شعبية رخيصة تجدها فى مكتبة الشامى فى شارع السكة الجديدة أيضاً .. ويمكنك أن تقرأ الكتاب بخمسة مليمات وترده لتأخذ غيره .. فيم تشتغل الآن ؟

ـ لاشئ ..

زفر نواسانى فى ضيق : كابوس البطالة يطبق على انفاس الفقير بلا رحمة ..

بدا كمن يحدث نفسه مرددا :

ـ اليأس .. ألعجز .. ألخوف .. ألقلق .. الاكتئاب .. ألهم .. ألهدم..ألنظرة لقادم الأيام تتراجع مرتعدة من لون السواد !

فى اللحظة ذاتها كان زاهر يفكر مع نفسه : « لايجد مستقرا..لايجد استقرارا فى حياته .. لن يجد ذكرى طيبة عندما يتقدم به العمر لمكان بعينه وجد فيه استقرار زمنيا أو نفسيا .. لن يجئ يوم يقول «كان لى فى هذا المكان ذكرى طيبة لا أنساها ».. كل الأمكنة

طاردة ظالمة نابذة لشخصه .. ليس ثمة غير ذكرى الخيبة والاخفاق والبؤس والشقاء..

* * * * *

فى دكان اسكندر صانع ابر مواقد الغاز فى شارع سيدى عبدالقادر.. بدأ زاهر العمل ..

قال له اسكندر محددا عمله الذى سيؤديه :

- ستقوم بتوزيع اكياس الإبر على دكاكين البقالة وسمكرية اصلاح «البوابير » .. ولك عندى عمولة معقولة تزيد بالطبع كلما زاد التوزيع..

سأل زاهر :

- هل أنت قريب نواسانى البيلى الذى جاء بك للعمل هنا ؟

- صديقى .

- انه شاب مجتهد .. أعرفه من زمن .. كان زبونى أيام دكان تأجير الدراجات ..

وقال اسكندر :

- ساعطيك دراجة الدكان .. لتعلق فيها مخلاة الابر وتدور بها فى السوق ..

في عودة زاهر للزقاق مر على سمبو سمكرى مواقد الغاز المجاور لدكان انور حجى الخياط..

عرض عليه بضاعته .. تفحص سمبو الإبر وقلبها فى يده المتسخة التى مسح بظهرها مخاط أنفه .. قال :

ـ ابر اسكندر ؟. . شاطر والله .. سمعت عنها .. أفضل له من تأجير الدراجات ..

نقد زاهر ثمن اكياس الإبر وقال :

ـ تتعب فى التوزيع بالتأكيد .. الإبر غير مرغوبة كإبر بريموس الأصلية .. ماذا يعطيك اسكندر عمولة ؟

لم ينتبه زاهر لمحمود العزبى الذى كان واقفا على باب أنور حجى ، يرقب زاهر وعلى شفتيه ابتسامة هازئة .

عندما دلف زاهر إلى الزقاق اسرع محمود العزبى خلفه يردد بصوت عال :

ـ ابروابور الجاز .. ابروابور الجاز !

لم يلتفت زاهر خلفه وأسرع يدخل البيت ..

على باب البيت وقف محمود العزبى يصيح :

ـ ابروابور الجاز ... ابر ... ابر ..

قالت أم زاهر التى كانت فى الحوش تكنس أمام حجرتها :

ـ ما هذا الذى يقوله محمود العزبى ؟

قال زاهر كاظما غيظه :

ـ حمار ينهق !

دخل الحجرة منفعل النفس ...

*****

وقف القس ذو اللحية السوداء أمام دكان اسكندر يرسل نظراته للداخل .. اسرع اسكندر اليه مرحبا :

ـ أهلا أبونا .. تفضل يا أبونا ..

قبل يد القس .. وقدم له كرسيا داخل الدكان .

رمق القس زاهر المنشغل باعداد مخلاة الإبر يتساءل بعينيه ، وتحول إلى اسكندر يسأله :

ـ منذ متى يشتغل عندك ؟

ـ منذ أسبوعين .

عاد القس ينظر نحو زاهر متفحصا :

ـ مسلم .

ـ نعم .

بدا الامتعاض على وجه القس .. التوت شفتاه فى استياء ..

فى صباح اليوم التالى وجد زاهر دكان اسكندر مغلقا .. تساءل لماذا واليوم ليس الأحد.

وقف ينتظر ..

جاء أحدهم يفتح الدكان .. دنا منه زاهر يسأل :

ـ أين الأسطى اسكندر ؟

ـ سيجى بعد قليل .. هل من خدمة ؟

ـ أشكرك .. هل جئت تشتغل هنا ؟

ـ نعم .. لماذا السؤال ؟

ـ لا شئ .. ما اسمك ؟

ـ يونان ...

انصرف زاهر فى هدوء ..

كان يلح عليه سؤال أسيف .. لم يتمكن من الاجابة عليه !

* * * * *

لقى زاهر نواسانى قرب ميدن الطميهى فى شارع سيدى حالة ، خارجا من الحمام الشعبى متورد الوجه ... منتعشا ..

عاجله نواساتى متهللا لرؤيته :

ـ زاهر صديقى .. كيف حالك ؟

وحشت زاهر كلمات نواسانى الآنيسة .. تبدد مساحة من ظلام اليأس والقنوط..

أمسك نواسانى بيد زاهر فى حرارة :

ـ تعال .. سنفطر معا المدمس بالسمن والثوم ! .. أشعر بجوع شديد بعد ليلة قضيتها فى الحمام ... مع أنى أكلت قالب العجوة الذى أخذته معى.. يقولون أن العجوة تفيد الجسم وقت تفتح المسام من أثر الماء الساخن ..

ضغط على يد زاهر فى شوق :

ـ أتعرف مطعم عبد اللاه ؟ .. نحن ذاهبان إليه .. انه مشهور بالمدمس اللذيذ والفلافل والبصارة .. ماذا تعمل الآن ؟

اغتصب زاهر ابتسامة :

ـ أحاول أن أعيش

هز نواسانى رأسه فى أسف :

ـ الجراد ! .. ينهش ورق الشجرة .. أللعين .. ألوحش .. ألمخيف .. ألمرعب ..يكسر الهامة .. يحنى الظهر .. يوقف تيار الحياة .. يحيلها إلى ركود مدمر للنفس باعثا على اليأس..

اكتفى زاهر بالصمت مدركا المعنى.. مشاركا نواسانى باحساسه فيما يقول ..

كان يبدو له أن العالم يقف فى وجهه .. المنصورة لا تريه غير الوجه

القاسى لينطفئ الأمل فى نفسه .. يمتلئ بالسخط ومرارة الضيق والقلق والاكتئاب .. يقذف به اليأس فى أيام سود لا يرى لها نهاية ... لو أنه يحمل شهادة دراسية لتغير الحال .. وفتح له باب العيش بالواسطة كما يفعل غيره .

سمع نواسانى يردد حين خرجا من الشارع الضيق إلى شارع العباسى الواسع :

ـ اشتغل الآن مدرسا الزاميا فى قرية محلة دمنة القريبة ..

تناول ذراع زاهر تحت ابطه .. ودخل المطعم المزدحم بالزبائن ساعة الصباح ..

طوال الوقت ، وزاهر يتناول الطعام بشهية .. لحظ نظرات صاحب المطعم نحوه .. لا تغيب عنه .. مع انشغاله بالزبائن ..

سأله نواسانى بنظرة لم يفهمها زاهر :

ـ هل يعرفك عبد اللاه ؟

نفى زاهر ذلك .. وسأل بدوره نواسانى :

ـ هل يعرفك أنت ؟

ـ نعم يعرفنى .. فانا زبونه الدائم منذ اشتغلت ..أتغدى البصارة وأتعشى الفلافل ..

طلب نواسانى بعد أن فرغا من الطعام حلوى المهلبية .

غادر صاحب المطعم لابس الطربوش والجلباب والمعطف الأبيض مكانه خلف الطاولة الكبيرة .. وقدم لهما بنفسه طبقا المهلبية .. خاطب مبتسما نواسانى بينما عيناه على وجه زاهر :

ـ ألمهلبية على حسابى .. اكراما لصاحبك !

نظر إليه نواسانى نظرة غامضة ولم يرد بكلمة .. اخفض رأسه للطبق.. وقال لزاهر :

ـ كل !

وبدأ يأكل فى صمت ..

وقف عند الطاولة يدفع الحساب لصاحب المطعم .. قال الرجل له ونظرته على وجه زاهر :

ـ شرفنا دائما ... ومعك الباشا !

استدار نواسانى دون كلمة وجذب ذراع زاهر وغادرالمطعم .

عندما ابتعدا قليلا سأل زاهر نواسانى :

ـ ما حكاية هذا الرجل ؟!

زم نواسانى شفتيه فى اشمئزاز وقال :

ـ شاذ .. يهوى الذكور الوسام مثلك ! حقارة !

وجد زاهر نفسه يحكى لنواسانى فى حرج عن ليلة سيد زبيب وهروبه منه ..

كان يأنس بصديقه ..

تغير صوت نواسانى وهو يقول منددا :

ـ انحرافات جنسية لها اسبابها من غير شك ... مصيبة أن تقع الجريمة فى البداية وتتكرر .. بعدها تعيش الضحية مستذلة بالرغبة المنحطة .. مستعبدة باللذة الشاذة .. معذبة... تقضى العمر مدمرة بالعار .. مطاردة بالإحتقار !! . وقليل منا من ينظر إليها على انها ضحية جديرة بالرثاء والاشفاق .

اردف قائلاً :

- المؤلم والمؤسف أن هناك صبيان فقراء .. تدفعهم الحاجة إلى الاستجابة لمحترفى الشذوذ .. ليحصلوا على القرش المحرومون منه !
حملق زاهر فى وجه نواسانى مندهشا غير مصدق !!

كان فى داخله تيار لايتوقف من الاعجاب بنواسانى لآرائه الحادة الساخطة على الواقع والمجتمع .. وكان يرى فيه طاقة من الصفاء الانسانى حانية دافقة العاطفة..

* * * * *

فى أحلام النوم وجد زاهر نفسه يعوم فى النهر تحت كوبرى القطارات الموصل إلى بر طلخا .. كما يفعل عندما يمل فراغ التعطل وتعرف هناك على مجموعة من الشباب واحدا تلو الآخر .. داست رجلاه أجولة الترمس التى ينقعها أصحابها فى النهر مربوطة فى الصخور الصغيرة المنتشرة على الشاطئ ... رأى الشبان يخرجون جوالا يشقونه بأظافرهم الحادة ويأكلون الترمس بمرارته .. لم يفعل زاهر مثلهم ... فجأة وجد الى جواره ، كأنما ينبثق من بطن الأرض ، أكثرهم مودة له لم يره من زمن .. انجذب إلى صفحة وجهه المفعمة بنضارة الشباب .. سارا سويا .. قال له زاهر : أين كنت من زمن ؟ ..سمعت عنك كلاما طيبا .. لم أعرف أنك بهذه الصفات مع قربى منك طوال صداقتنا .. لماذا لم تتزوج ؟ ... أجاب مشرق الملامح :هل تتزوجنى ؟! .. ضحك لكلمته : تطلب المستحيل ! سأله : كيف حياتك الآن ؟ .. قال زاهر : الأيام تزداد جهامة وكآبة ! ... قال الآخر : لم تأكل مثلهم الترمس لماذا .. هل لمرارته ؟ ... قال زاهر : لأنه من حق أصحابه الفقراء .. يرتزقون من

بيعه ... قال الآخر : أكافئك بالبرتقالة هذه ! .. تناول زاهر البرتقالة فرحابها .. فيما تأخر الآخر عنه خطوات واختفى ... اشتهى زاهر البرتقالة .. لم يقشرها ... غاص فيها باسنانه يعتصرها .. متلذذا .. فيما يستمر فى السير ... بعد قليل وجدها تضمر فى يده بعد ما نضب ماؤها ... كلما هم أن يلقى بها على الأرض وجد الناس يقفون صفين على جانبى الطريق يحدقون نحوه .. خجل وظل محتفظا بالبرتقالة مستمرا فى السير ... سمع الصوت يناديه عاليا ... صاحبه ينادى .. لعله يريد أن يعطيه برتقالة جديدة .. من وراء تل من الرمال كان يأتى الصوت والصدى يتردد هناك .. هل يستطيع أن يصعد التل دون أن تسيخ قدماه فى الرمال ؟

كان يفترسه القلق والحيرة والخوف المتزايد إلى حد الذعر من الغد الذى لم يتزود بسلاح لمواجهته ..

*****

لم يتوقع زاهر عندما ذهب إلى إدارة سكك حديد الفرنساوى .. ليقابل محمد العزبى الأخ غير الشقيق لمحمود العزبى،أن يقبل طلبه ويلحقه بالعمل فى الشركة ..

كانت أم زاهر قد كلمت محمد العزبى عند زيارته لأبيه فى الزقاق ..لمساعدة زاهر بالحاقه بالعمل مؤكدة له أنه يجيد القراءة والكتابة .. وانه متفتح الذهن يمكن الاعتماد عليه فيما يكلف به ..

فوجئ زاهر بتكليفه بالتوجه إلى مدينة المطرية للعمل معاونا لناظر المحطة هناك ..

عاد زاهر إلى الزقاق مسرعا غير مصدق ليخبر أمه .. وليحمل ثيابه القليلة متأهبا للسفر ..

دعت له أمه طويلا والدموع فى عينيها ...

ورافقه مرسال بالحنطور لادارة الشركة ..

هناك قال له :

- ستعيش امك وحيدة لسفرك .. لا تظن أنها تحس بوجود بسيونى معها .. لا تتأخر عنا كثيرا ..

قال زاهر والفرحة يمازجها الأسف لفراق أمه والبعد عن الزقاق :

- سيعطوننى راحة يومين كل اسبوعين ... سأحضر فيهما ..

قال مرسال مبتسما :

- لا تنسى أن تحضر معك أكلة من سمك المطرية اللذيذ .. لا تنسى !

قال زاهر :

- ليتك توصى أمى بزيارة أختىَّ فى أيام الجمع كما كنت أفعل ..

أكد له مرسال :

- سأوصيها .. اطمئن وسأوصلها بالحنطور .. فالمشوار طويل ..

*****

قال زاهر لأختيه :

- سنكتفى بحجرتنا لنقيم معا كما كنا ... لسنا بحاجة إلى الحجرة الثانية التى كانت تسكنها أمنا وبسيونى ... حتى لانتكلف أجرتها ..

كان قد انتقل إلى المنصورة للعمل فى المحطة الرئيسية .. بعد أن دبر له النقل محمد العزبى كرغبته .. ليرعى أختيه ..

*****

عندما سقط زاهر مريضا لاصابته بداء الجدرى المنتشر فى المدينة ..
كانت حسيبة تنزل كل صباح من مسكنها لتجلس على الدرجة الأخيرة من السلم الخشبى فى مواجهة حجرة زاهر المفتوحة دائما عدا فى الليل .. تسأل نجدة وامتثال عن حال زاهر .. وتدعو له بالشفاء.. « الله لا يغيّبه أبداً .. ولا يضركما فيه ... ليس لكما غيره » .

ذات يوم بعد صعود حسيبة إلى مسكنها .. دخلت حورية ابنةفوزى سبرتو حجرة زاهر تسأل عن صحته :

ـ سمعت من خالتى حسيبة بمرضك .. لك السلامة ..

فى وقفة حورية عند سرير زاهر كانت تدور بعينها فى ثياب زاهر وأختيه المعلقة على مسامير فى الحائط .. وتتراجع نظراتها لتطل على وجه زاهر تحمل معنى ضايقه:

« تعيشون بغير دولاب ! .. حجرة بغير دولاب ! ... حجرة خالية من الدولاب ! .. ليس عندكم دولاب ! » .

تململ زاهر فى رقدته يختنق ... يزيد فى اختناقه البثور المتنفخة التى تغطى رقبته حتى أسفل الذقن .. تعلوها طبقة كثيفة من المرهم الأسود ، أمر به الطبيب ..

كان قد اعطى امتثال ساعته لتبيعها ، كى تحضر له الطبيب ... وابتسم برغم حالته ، عندما تندرت امتثال بطلب الطبيب منها قبل أن يغادر عيادته باحضار عربة حنطور لتقله إلى بيتهم .. ثم تراجعه طالبا منها أن تعطيه الخمسة قروش أجر الحنطور ... بدلا من الركوب ... ثم وضع الساعة فى الطربوش ونزل معها .. وقالت امتثال انها سمعت كلام الناس كثيرا عن هذه الطريقة التى يتبعها الطبيب رغم ثرائه وامتلاكه

ارضا زراعية وحديقة واسعة مثمرة بالفاكهة.

كان زاهر قلقا يخشى أن يتمكن منه داء الجدرى فيصيبه بالعمى .. كان يلزم نفسه بالدواء الموصوف .. يقضى الليل بغير نوم .. يغفو عند الفجر فيوقظه نوبة السعال المتلاحق التى تنتاب نجدة فى مثل هذه الساعة فى كثير من الأحيان .. ينوى الذهاب بها إلى الطبيب عندما يخرج من أزمة المرض سالما ..

بينما اتجهت حورية صوب الباب ، شحب وجهها .. وتراجعت إلى الوراء فى خوف .. كان فوزى سبرتو يقف فى مواجهة الحجرة يرشقها بنظرة نارية ..

انفلتت حورية خارجة .. قبل أن تضع قدمها على درجة السلم هوت على مؤخرة رأسها ضربة الخيزرانة التى يحملها فوزى سبرتو فى يده دائما .. اسرعت تصعد السلم وأبوها خلفها .. لم يصدر منها صوت الألم أو صدمة المفاجأة .. ولم يصدر من فوزى سبرتو صوت ما ..

همهم زاهر فى أسف : ـ ظلمها !

قالت نجدة :

ـ سنسمع صراخها الآن لضرب الخيرزانة !

قالت امتثال :

ـ ستعطيه خالتى حسيبة زجاجة السبرتو .. فيسكر ويهدأ !

قالت نجدة فى اشفاق :

ـ يتيمة مسكينة .. تعيش فى بيت زوج أختها بعدما تزوج أبوها حسيبة .

فى استياء قالت امتثال :

- ماذا يظن فوزى سبرتو فى أخى المريض .. وهو ليس وحده فى الحجرة !

انكمش زاهر تحت الغطاء مهتاج المشاعر ..

لم يخطر له يوما أن يقيم علاقة مع حورية ..التى كان يراها تدخل البيت كثيراً لزيارة حسيبة وتبتسم له.كيف يحدث ذلك ؟ .. هل يسمح له الواقع بعلاقة كهذه؟ .. واين سميرة ابنة الزقاق التى لا يخفق قلبه لغيرها .. ! يراها فى زيها المدرسى جميلة حلوة التقاطيع .. تتفجر أنوثة وحياة !

صدره يجيش لرؤيتها بالأحلام العذبة ... لكنه يفيق من أحلامه بعد لحظات ليست طويلة .. بحسها مسروقة من الزمان الذى يعيشه .. فى الغد تنسحب منه بلا عودة ..

فكيف يجترئ على تحدى الواقع المسيطر ؟!

تتزايد العتمة لعينيه ..

الجراد ...

لا ينسى يوم رأته فى ضحى يوم بميدان المحطة .. قادمة من ميت حدر .. كان يحمل حزم السبانخ وقرطاس الطماطم فى طريقه إلى بيت اسكندر الذى كان يشتغل عنده ... كان يرسله بالخضركل يوم سبت حيث سيصبح يوم الأحد عطلة اسكندر الأسبوعية .

توقفت سميرة يرتسم فى عينيها الاستنكار مقرونا بالدهشة .. انحدر يومها من شارع المحطة فى طريقه إلى الحسينية .. يشعر بدبيب الحمى فى جسده ... محاولا أن يتمرد على اللحظة ليعزى نفسه : ماذا تريد سميرة للابس الجلباب العاطل من الشهادة الدراسية ؟ .. أكانت

تظنه موظفا يجلس خلف مكتب ؟! .. هل كان فى نظرها ـ هى التى لم تكن تراه كثيرا فى الزقاق ـ ذا قيمة تدهش ازاءها وتستنكر أن تراها فى وضع غير لائق !؟ ماذا يمثل زاهر فى تقديرها ... هو شقيق نزيلتنا الملجأ وابن زوجة خفير الشونة !

على أنه عندما بدأ يفكر فى الموقف من جديد تبدى له أنه بتلك النظرة التى رآها فى عينى سميرة ، انما تشير إلى اهتمامها بشخصه ، على الأقل كجار يسكن الزقاق ! .

عندها شعر زاهر بارتياح كبير .. وان شابه الأسف والأسى لواقع حاله!

لقيها فى أحلام النوم ذات ليلة ..

كانت ترتدى ثوبا سماويا .. شعرها منسدل على احدى عينيها ترنو اليه بالعين الأخرى التى أبقتها مكشوفة لتراه !

احتوى يدها فى يده .. وكيانه يرتعش .. سمع من ينادى : سميرة ... انتشى قلبه للنداء :

« كسا النداء اسمها حسنا وحببه   حتى كأن اسمها البشرى أو العبد »[1]

همست له :

ـ ألا نستطيع ان نجلس وحدنا نتكلم .. دون أن ترقبنا العيون ؟

دبت الفرحة فى بدنه كله ..

هناك الأمل اذن ..

لم يتمالك ...مال عليها فلثم شفتيها فى وجد ووله .. لثمة لم يحلم بها فى اليقظة !

---

(١) البيت لأحمد شوقى .

لكن لا ..

لا يجب أن يضعف قلبه لحب لا حياة له !

يموت لأنه يموت !

هل سمحت له أيامه بالجلوس مستقرا كالآخرين ؟

كلا .. انه دوما جاثيا على ركبتيه .. متعب .. مجهد .. مكدود..

يجتاحه الخوف من المجهول !

فمثله لا حق له فى شئ مما يحلم به أبداً !

يتحطم الحلم ..

الجراد ...

*****

جاءت أوصاف لزيارة زاهر تحمل طفلها الصغير ..

كان غافيا حين أطلت عليه فى سريره ..

عاجلته معاتبة وهو يفتح عينيه فى صعوبة ، كيف لم يرسل إليها يخبرها بمرضه ..

قال :

ـ لم أشأ ازعاجك !

قالت انها جاءت كالعادة برفقة زوجها ليتسوق البضاعة لدكانه فى نبروه .. سألت :

ـ منذ متى مرضت ؟

فى وهن قال :

ـ اياما طويلة وأنا كما ترينني ..

فى أسى وهى تهدهد طفلها قالت :

ـ عزيز على مرضك ..

بصوت لا يكاد يسمع قال :

ـ حرمت نعمة النوم .. لشدة الألم ..

قالت امتثال :

ـ نحاول ألا نحدث اصواتا لمساعدته على النوم ..

فى المساء جاء زوج أوصاف متعبا .. قال لزاهر : لا بأس عليك ».. وتمنى له العافية .

اعدت لهما نجدة الحجرة الثانية التى لم يسكنها أحد بعد ليبيتا فيها..

دخلا وأغلقا عليهما الباب ..

بعد وقت سمعوا صرخة حورية .. وزوجها يهدر :

ـ الولد سيموت ..لماذا دخلت به عند أخيك !

ـ ربما هو فطسان من شدة الحر ،،

وصرخة مكتومة أدرك زاهر وأختيه أنها لطمة أخرى :

ـ اسكتى يا وجه الشؤم !

ثم الصوت بعد لحظة :

ـ يا ليتنا ما جئنا هنا .. لم أكن أعرف أنه مريض بمرض معد .. لماذا ..

انقطع الصوت .. عرفوا أن أوصاف تحاول اسكات زوجها ..

هبط على الحجرة صمت بددته نجدة قائلة فى آسف :

ـ يخاف على ابنه من العدوى !

قال زاهر :

ـ أمر طبيعى أن يخاف .. لكن لماذا يضرب اوصاف بلا ذنب !

قالت امتثال محتجة :

ـ كان الأفضل ألا يجيئا أصلا !

قال نجدة :

ـ وهل أصابتنا العدوى ونحن مع المريض فى حجرة واحدة !

فى الصباح لم يسمعوا صوتا ولا حركة .. لم تدخل أوصاف عندهم .. ذهبت ..

سخنت عينا زاهر بالدموع .. اسرع يجففها بكمه فى رقدته قبل أن تنحدر .. حتى لا تكويه البثور التى تملأ وجهه .

جاست نظراته فى فراغ الحجرة بينما يغالب الألم .

وكان يسمع تهامس امتثال ونجدة فى جلستهما على الحصيرة خارج الحجرة .

* * * * *

كان زاهر خارجا من محطة قطارات الفرنساوى فى اليوم التالى لابلاله من المرض ، عندما تصيدوه أمام الخيمة التى اقاموا عددا منها فى منافذ المدينة وفى محطات الأتوبيس والقطارات .

لم تفلح معهم محاولاته فى اقناعهم بأنه عولج من الإصابة وشفى تماما .. فلم يعد للجدرى أثر فى جسمه ..

نظروا إلى وجهه الملئ بالبثور الجافة المتخلفة عن العدوى وقالوا لابد من دخوله « العزل » فى المستشفى لفترة .. حتى تزول آثار العدوى تماما .. مخافة أن يصيب بها أحد ..

ورافقه واحد منهم فى اصرار عندما عاد ليعرض الموقف على رئيس الحركة لمنحة اجازة .. وكان الرجل متفهما لواقع انتشار الوباء فى المدينة .. فطمأنه أنه خير له وللآخرين أن يعزل فى المستشفى أياما لن تستمر طويلا ..

فى الليل حين تثقل الوحدة على زاهر فى الخيمة المنعزلة .. يجتاحه الحزن والشوق لأختيه اللتين تركهما وحيدتان .. وكان قد أرسل يوصيهما مشفقا ألا يتجشما مشقة زيارته .. خاصة أنهما لن تستطيعا رؤيته إلا من خلف قضبان السور الحديدى المرتفع الذى يحيط بخيام العزل ..

كانت تشرق عليه مرات اثناء النهار ، بوجهها الصبوح الهادئ فى براءة .. وكانت نظراته تتعلق بها فى ردائها الأبيض وادعة كأنما هى ملاك ..

كان يتخاطب معها فى بعض الأوقات .. وتبادله الحديث المصاحب لابتساماتها الرقيقة .. وكان عندما يراها من باب الخيمة الواطئة مقبلة من بعيد يلف رأسه الذى ازالوا شعره يوم أدخلوه المستشفى بالمنديل محاولا ما أمكن تغطيته !

عرف اسمها: « زينب » وعرف أنها من حى السيدة زينب فى مدينة القاهرة .. يتيمة الأبوين .. تركت شقيقها الصغير فى رعاية خالتها المسنة وعرف أنها تسعى جاهدة لتنقل إلى مدينتها ، أو إلى بلدة قريبة منها .. ليمكنها رعاية شقيقها ..

عندما كان يسألها متى سيغادر المستشفى .. كانت تقابله نظرة عتاب خفى كأنما تقول له : هل تريد مفارقتنا ؟!

وكان قلبه يتهلل بالفرحة حين تجلس على سريره بعد انتهاء نوبتها تكلمه عن نفسها ... وينزاح عن نفسه الضيق والملل ..

كان يسأل نفسه : هل يمكن أن يجد حقا فى تلك اللحظات بعض السلوى ؟ أم هل تملكت سميرة قلبه وكيانه .. فلا جدوى ولا رجاء !

ومع وجه سميرة الذى كان يخايله فى أغلب الأوقات .. باتت زينب أنيسة لياليه الموحشة ، اثناء نوبتها .. وعرفت منه أنه حديث العهد بالوظيفة الصغيرة التى شغلها فى سن مبكرة ، ليضمن القوت لنفسه ولأختيه ..

جاءته ذات مساء مكتئبة على غير عادتها .. قالت فى طيبة بصوت رقيق لم يفته اضطرابه :

ـ ستخرج فى الغد .

صمتت ثم اضافت مغالبة احاسيسها :

ـ أرجو لك العافية دائما ..

واغتصبت ابتسامة :

ـ هل ستسلم لى على امتثال ونجدة ؟ .. كنت أود أن أراهما !

نظر خافق القلب إلى وجهها .. قال فى رجاء :

ـ ألن آراك ؟ .. لدى ما أود أن أقوله لك ..

تمشت فى وجهها حمرة خجل .. قالت فيما يشبه الهمس :

ـ لاأعرف شوارع المدينة .. يمكنك أن تنتظرنى على رأس الشارع بعد غد .

طار قلبه فرحا ..

ذهب فى الصباح يتسلم بذلته الوحيدة ..

قالوا له انها فى المبخرة ..

كاد يصعق ... المبخرة !

اسرع يهرول بقدمين متعثرتين ..

كما توقع : البذلة انكمش قماشها وتجعد .. ولمع صوفها الذى رق نسجه وصار كالمنخول .. فبدت كخرقة « خارجة » ـ كما يقولون فى تشبيهاتهم ـ من فم كلب » ..

اجل لفظها كلب وحشى .. فيا لضيعته !

لبسها فبدا باحساسه دون مرآة ، انه يشبه الأرجوزات أو مهرجو السيرك! .. وأدرك انها لم تعد تصلح حتى لكناس فى الطريق !

اخذ يدمدم لاعنا نفسه أن طاوعهم فجاء ساعيا إلى المكان المشئوم بقدميه ! .. هدر يلعن المستشفى ويلعن كل من فيها .. غير أنه استدرك يعاتب نفسه : أليست زينب من بينهم !

آه .. زينب ..يا للكارثة ! .. كيف يسلم عليها مغادرا .. كيف ستراه على هذه الحالة المزرية !؟

تسلل إلى الخارج منسرقا ... القى نفسه داخل عربة حنطور كيلا يراه أحد ..

لن يستطيع أن يلقى زينب فى الموعد .. الأمر مستحيل .. فمن أين يأتى ببذلة أخرى ؟ .. بل لن يمكن أن يراها سوى ـ ربما ـ بعد زمن سيطول !

ومن يدرى .. لعلها تكون قد رحلت منقولة إلى مدينتها ...

ثقل قلبه بتعاسة وحزن كظيم ..

وخزت عيناه الدموع يابسة كالحصى ..

أثمة سور أقيم حوله .. لا منفذ فيه لا مرأة يجد فيها عوضا عما حرم منه فى حب مستحيل !!

*****

لقى زاهر نفسه مدفوعا إلى صداقة سنوسى ، الذى حل محل مرسال فى العمل على عربة الحنطور .. كان زاهر يشعر بحاجته إلى صداقة انسان آخر فى الزقاق الذى يشعر فيه بالغربة النفسية مفتقدا فيه تلك الطمأنينة الوادعة التى كانت تغمره بها صداقته لمرسال !

لم يكن يرى نواسانى كثيرا ، لانغمار كليهما فى الطاحونة قسرا !.. وكان ذلك الفراغ النفسى الذى خلفه غياب الصديق يدفعه مرغما إلى تذكر سميرة فى كل حين... ليشتعل الحنين وتستعر اللوعة !

وبدأت الصداقة بسنوسى فى صباح يوم ، عندما أراد زاهر الخروج من الزقاق فوجد الحنطور يسد الطريق أمامه ..

لحظه سنوس وهو يعلق الحصان فى العربة فسارع يقول :

ـ حالا يا أخ زاهر .. سأخرج بالحنطور ..

واستراح زاهر لنداء سنوس له باسمه ولقرنه الإسم بالأخوة ، برغم انه لم يره غير مرة أو اثنتين .. واستشعر قرب صداقته به !

فى اللحظات التالية كان زاهر يركب مع سنوسى ليوصله إلى مقر عمله ، رغم قصر المسافة ..

دار بين الاثنين حديث قصير .. ولمس زاهر جرأة سنوسى فى حديثه واختياره الكلمات المتدنية بديلا للكلمات المتمدنة .. واشاراته المستمرة بيديه المخضبتين بالحناء ! .

صارحه سنوسى بانه لقيط لا يعرف له أهلا .. وانه كان يعيش فى ملجأ اللقطاء منذ وجدوه فى الطريق ! .

وقال ان « الست » خديوية تعرف حكايته .. وأبدت ارتياحها لشخصه لأنه فى تقديرها أضمن من أى حوذى آخر يركب الحنطور ، لتفرغه تماما .. ولكونه سيبيت فى الإصطبل فتستأنس بوجوده فى الليل..

لم يكن يعكر صفو الصداقة الجديدة غير نظرة سنوسى لوسيلة زوجة طلبة العزبى عندما تظهر فى الزقاق ، يغمز ذراع زاهر وعيناه على وسيلة :

- انظر ! هل ترى رجليها فى الخلخال ! .. تأمل كيف تضرب عروقها الخلخال بقوة ! .. مهرة ! .. من يراها لا يصدق أنها أنجبت الولد والبنت! .. حتى ابنتها سميرة .. ترى شبابها الفائر فلا تعطيها سنها الحقيقى !

يعترى زاهر الاحساس بالضيق لسماعه اسم سميرة يجرى على لسان سنوسى ..

يرشق سنوسى بنظرة لائمة مستهجنة :

- عيب ! .. لا تنظر إلى جيرانك بهذه النظرة ! .. مالك ومال وسيلة وابنتها !

وبدأ زاهر يحس القلق تجاه سنوسى .. وتضاءلت صداقته به تدريجيا .. ولم يعد ينظر إليه بأكثر من كونه جار مستجد فى الزقاق .

غير أن سنوسى كان دائم المماحكة فى زاهر ليسترد صداقته من جديد .. وبدا انه يحاول أن يجد مدخلا لتحقيق رغبته ، عندما التقى بزاهر فى طريق عودته من العمل ...

أستوقفه مادا يده يصافحه ... بادره بكلمات ودية قبل أن يقول :

- غضبت منى لنظرتى إلى وسيلة تلك النظرة .. ما رأيك اذن فى دخولها بيتهم الآخر .. الذى يسكنه الآن فى حجرة ارضية طالب المعهد الدينى !

لم يلحظ زاهر وجود ذلك الطالب فى بيت طلبة العزبى ، ولم يشعر به على الاطلاق ، لانشغاله فى العمل وعدم التفاته لشئ مما يدور فى الزقاق ..

ولم يمل إلى تصديق سنوسى فى دخول وسيلة البيت .. مستبعدا أن تقوم علاقة ما بينها وبين ذلك الطالب .. وظل يشعر بالضيق لما سمعه .. لكنه فى داخله كان يحس بارتياح لاتهام أم غريمه محمود العزبى الذى يعاديه ويستعلى عليه ، بهذه التهمة !

غير أنه خجل من نفسه بل احس باحتقارها .. وراح يوجه اللوم القاسى إلى ذاته يتساءل : هل نسى أنها أم سميرة ؟!

ونفض عن رأسه فكرة الشك التى حاول سنوسى أن يزرعها فى صدره فمستحيل أن تسقط وسيلة بهذه السهولة .. وليت سنوسى يعرف أنه يحب ابنتها .. ليكف عن حكاياته الكاذبة حول جارة نقية السمعة ..

وكان زاهر يلحظ تمسح سنوسى فى محمود العزبى عندما التحق بمعهد الكونستا بلات بعد حصوله على الإبتدائية - برغم نفور محمود العزبى منه وحدته فى مخاطبته اذا اقتضى الموقف .

لكن محمود العزبى كان يبتهج لموقف سنوسى من أحمد العزبى وتحديه له فى أحيان دون سبب معروف .. غير أن زاهر كان يدرك أن الغيرة من مظهر أحمد العزبى هى الدافع إلى موقف سنوسى منه !

كان سنوسى يرى أحمد العزبى مقبلا على رأسى الزقاق فى زى «القمصان الرزق» فيتباطأ فى تجهيز الحنطور لمغادرة الزقاق .. عندما يتعجله أحمد العزبى يدير له ظهره متظاهرا بعدم سماعه ..

يقف محمود العزبى عند باب بيتهم يرقب الموقف .. ويبدى ارتياحه قائلاً :

- أعجبتنى يا سنوسى !

يطل سنوسى برأسه من فوق ظهر الحصان بينما يعده للربط فى الحنطور :

- ماذا يظن نفسه أحمد العزبى ؟ .. ألدوتشى موسولينى الذى نسمع عنه فى إيطاليا !

يضحك محمود العزبى :

- مغرور .. يتصور نفسه بطلا وطنيا لانضمامه إلى جماعة القمصان الزرق ..

يضيف فى سخرية أنه يشتبك كل يوم فى معارك مع شباب «القمصان الخضر» المنتمين لحزب مصر الفتاة .. ويهزأ من أحمد حسين زعيم الحزب ويقول لا زعيم إلا النحاس باشا ..ليبدو مناضلا فى عين الوفديين !

وكل مرة يحضر فيها أحمد حسين ليلتقى بأعضاء الحزب يهجمة أحمد العزبى مع شباب القمصان الزرق ويعتدوا عليه بالضرب !

بينما يعتلى سنوسى الحنطور ليخرج من الزقاق يقول بصوت مرتفع ليسمعه أحمد العزبى :

- لماذا أخوه محمد العزبى لا يفعل مثله .. لا يتعنطز ولا يتكبر وهو الموظف الكبير !

تتبدى كراهية محمود العزبى لأخويه غير الشقيقين :

ـ لكنك لا تعرف حقيقة محمد العزبى هذا !

ـ ماذا يفعل ؟

بدا رغم السؤال أنه لايعنيه اخلاقيات محمد العزبى .. فهو ليس سوى مجاملة لاستمرار الحديث بينه وبين محمود العزبى من جهة واغاظة أحمد العزبى من جهة أخرى !

يرد محمود العزبى متصنعا الإستنكار :

ـ يكفى علاقته بعشيقة فى «الكراخانة »[1] .. بماذا يرضيها بغير ما ينهبه فى وظيفته !

يتحرك سنوسى بالخنطور قائلا :

ـ لا يهمنى شئ من خصوصياته .. ما يهمنى هو وقوفه بكل الذوق وصبره عند زيارته لكم .. حتى أخلى له الطريق على مهلى .. فيرفع منشته يحيينى ويشكرنى !

*****

شغلت الحجرة الخالية فى بيت حسيبة بعين النفوس ابنتها هى وولديها الصغيران ..

كانت عين النفوس منكسرة آسية لطلاقها من زوجها بعد عشرة السنوات ...

أسكنتها أمها الحجرة وفرشتها بحصيرة ومخدة ولحاف قديم .. وأعطتها نجدة الحصيرة التى كانت تنام عليها أمها وزوجها فى حجرتها... ودقت لها امتثال ثلاثة مسامير فى الحائط لتعليق الثياب..

منذ يومها نشأت علاقة صداقة بين عين النفوس والأختين.. وكانت

(١) يطلق الاسم على بيوت البغاء .

تتعلق أكثر بامتثال للروح الطيبة التى تتميز بها ولتقارب عمريهما .. وكانت تبثهاآلامها وتشكو لها غدر زوجها، وتقول انها تزوجته صغيرة لا تدرى من أمور الحياة شيئاً .. وتحملت العيش مع أمه فى مسكن ضيق وعانت كثيرا تًسلطها وشحها لحد انها كانت تعد عليها أرغفة الخبز القليلة وتحدد لها طعامها لا تتعداه هي وزوجها ! .

تبادلها امتثال تحكى لها أسرارها وخصوصياتها ..

وكانت عين النفوس تكثر من شكواها لتحمل أمها الانفاق عليها وعلى ولديها .. رغم ضآلة دخلها من البيت .. تقول :

- ليتنى أجد ما أخفف به الحمل عنها .. ويكفل لى الانفاق على نفسى والولدين .

ذات يوم كانت دهشة امتثال لا حد لها .. عندما رأت عين النفوس تدخل البيت حاملة سندالا مما يستخدمه الاسكافى فى مهنته ومعه الشاكوش والمسامير الدقيقة فى كيس صغير .

لم يدر بخاطر امتثال أبدا أن تلجأ عين النفوس إلى تلك المهنة التى اختارتها .. واستغربت ألا تخبرها عين النفوس بشئ من هذا القبيل برغم صداقتهما .. وأيقنت بعد حوار دار بينها وبين عين النفوس ، انها اتخذت قرارها دون تردد بعد تفكير طويل ودون تراجع .. لاقتناعها بأنه القرار الأنسب لها حتى تكون قريبة من ولديها فى عملها الذى سيحقق لها دخلا معقولا .. متجنبة الخدمة فى البيوت كما يفعل الكثيرات فى مثل حالتها .. وانصياعها لنهى أمها لها أن تقدم على تلك الخطوة المهينة التى لن تقبلها لابنتها .

وأكدت لامتثال ، حين أبدت شكها فى نجاح تلك المهنة بالنسبة لها

لقلة خبرتها بالطبع ، انها ستحاول ولن تفشل !

على ناصية الزقاق جوار دكان أنور حجى ، وضعت عين النفوس أشياءها .. لتبدأ ممارسة مهنة الإسكافى .

كان زاهر يمر بها عند خروجه للعمل وعودته منه .. يلقى عليها التحية .. ويسألها أن كانت فى حاجة إلى مساعدة ما ..

كانت تشكره ممتنة .

ويوم احتاج حذاء زاهر المفتوق إلى اصلاح . تحرج أن يعطيها اياه ، لإحساس واتاه بانه يساهم بالتعامل معها فى حذاء يخصه باشعارها بوضاعة المهنة التى اختارتها !

ولم يفكر كثيرا فى رجاحة تصرفه وواقعية نظرته ، وهل محق هو فى تقييمه للأمر ! .. أم أنه قرار طائش أملته عليه حساسيته المفرطة !

كانت عين النفوس تنتقل بسندا لها من حى ميت حدر إلى سوق المدينة الكبير فى يوم الثلاثاء .. وسويقة ستوتة القريبة من حى الحوار فى كثير من الأحيان لازدحامها ببيوت الفقراء .

كانت النسوة يحومن حولها فى جلستها متغامزات متبسمات فى دهشة .. يقبعن حولها فى ضجة الزحام يتأملن بفضول حركتها السريعة بالمخراز ودق الشاكوش على السندال بينما تصلح لهن الأحذية والشباشب وترقع جوانب الأحذية باللوز الجلدية لتقويتها ... يتبادلن نظرات التعجب وهى تلفظ من فمها المسامير الدقيقة وتلتقطها بأصابع مدربة لتدق النعال على السندال ..

وكانت عين النفوس تضيق بنظرات الرجال نحوها ومماحكة البعض للتقرب منها وفتح باب الحديث معها ... وتحاول فى لباقة اقناع

الطامعين فيها بانها مجرد امرأة معيلة تبحث عن الرزق الحلال ... ليكفوا عن مطاردتها ..وكانت تشعر بضغط نفسى مضن ، حين تجد بينهم الرذل والسخيف واللزج .. وكانت تصدهم جميعا باللين والصبر والحزم بغير زجر أو تأنيب..

ولمن يريد الزواج منها تقول بلهجة قاطعة انها أبدا لا تراودها فكرة الزواج من أجل ولديها اللذان تحرص على التفرغ لتربيتهما .

وفى البيت كانت عين النفوس تحكى لامتثال عن رحلتها مع الناس طوال اليوم .

وتقول :

- بودى ان أقبل الزواج من رجل مناسب ، لأستريح من قعدة الشوارع بالسندال .. وحمل مخلاة قطع النعال القديمة التى أعالج بها الأحذية .. ولكن ماذا سيكون حال الولدين الصغيرين ؟؟

تأخذها الحيرة .. تقول لها امتثال ان حياتها فى المهنة التى اختارتها ولو انها غريبة بالنسبة لامرأة ضعيفة أفضل من الحياة مع رجل ، ربما لظروف خاصة أو لأنانية وقسوة فى طبعه يسئ معاملة الولدين أو يقهرهما .

وكانت امتثال تتخيل اثناء حديثها لعين النفوس حياتها هى ونجدة مع بسيونى الدولتلى الذى أراد استغلالهما بالخدمة فى البيوت .

كانت عين النفوس تترك الولدين لامتثال ونجدة حتى تعود فى المساء، تجنبا لمشاكل قد تحدث بين أمها وزوجها حال ترك الولدين لها .

*****

سمعت أمتثال تصفيقة قرب باب الحجرة المفتوح .. خرجت لترى من، وعادت متوهجة الوجه ، قالت لزاهر :

ـ سنوسى يريد مقابلتك .

دهش زاهر .. فماذا يريد سنوسى ؟

قال :

ـ يتفضل ..

أسرعت نجدة فصعدت إلى حسيبة تحضر كرسيين .. بينما كان زاهر يرحب بسنوسى فى حرج .. فليس ثمة كرسى ليدعوه للجلوس .. عندما دخلت نجدة وقدمت لسنوسى الكرسى وجلس بينما جلس زاهر على الكرسى الآخر . قال سنوس :

ـ لن أعطلك كثيرا يا أخ زاهر ..

تسحبت امتثال من خلف سنوسى تحمل موقد الغاز وكيس الشاى وكوبين وصينية ..خرجت إلى حجرة عين النفوس .. وفتح لها الباب الصغيرين .. بينما عين النفوس غائبة .

قال سنوسى فى بساطة :

ـ جئت اخطب امتثال لنفسى ..

لحظ سنوسى امتعاض زاهر المختلط بالدهشة .. وفهم :

ـ أعرف اننى انسان لا يليق لأختك .. كما أنى أعرف انك لا تثق فى اخلاقى من يوم تكلمث عن وسيلة ..

قال زاهر :

ـ ليس السبب الأخير وحده ...

بادر سنوسي قائلاً :

- سأشتغل سائقاً وأترك العمل على الحنطور .. بمجرد الحصول على رخصة القيادة .. لأكون أهلا للزواج من أختك ..

- شئ طيب .. وأتمنى لك الخير .. لكنى .. معذرة .. لا أثق فى أخلاق السائقين ..

- ليس كلهم .

ابتسم زاهر

- تقصد أن تستثنى نفسك ؟!

- أعتقد اننى على جانب من الخلق سترضى به ..

دخلت نجده بصينية الشاى .. صمت سنوسى حتى انصرفت .. قال مكملاً :

- لا أهل لى كما تعرف .. وكما يعرف أهل الزقاق .. وأثق انك ستقبلنى أخالك بجانب أخواتك ..

قال زاهر :

- سأفكر فى الأمر ..

*****

عندما دخل زاهر الزقاق فى الليل متأخراً عن موعده المعتاد .. كان هناك الحنطور يقف كالعادة قبل دخول الإصطبل .. لكن بابه كان مقابلاً بالتحديد لباب بيتهم .. وجوار باب الاصطبل كان سنوسى يقف منحنيا بجسده ، يدخل رأسه فى الحنطور يحادث شخصاً فى الجانب الآخر ..

لم يكن زاهر بحاجة إلى أن يعرف انها امتثال ..

اقترب من الحنطور ونادى :

- سنوسى !

تراجع سنوسى على الفور وأدار وجهه ناحية الإصطبل .. فى سرعة قفز إلى مقدمة الحنطور وأمسك بالعريش يجره للأمام .. مفسحا الطريق لزاهر فى صمت ..

فى الداخل كانت امتثال منكمشة فى ركن الحجرة .. تخفض رأسها للأرض ..

اكتفى زاهر بالنظر نحوها .. لم يوجه اليها كلمة .. انتابه احساس بالعطف عليها فى قعدتها المستكينة .. وكان يتزايل فى داخله بالشفقة.. بينما كانت نجدة تحضن الحصيرة المطوية ترفعها و تضرب بها الأرض لتنفض التراب.

صاح زاهر متوقد الانفعال بما شهده منذ هنيهة :

ـ لماذا لم تنفضيها قبل أن أجئ . اخرجيها للحوش ونفضيها للتخلص من البراغيث !

حملت نجدة الحصيرة وخرجت بينما ظل زاهر واقفا ينتظر فرش الحصيرة ، مديرا ظهره لامتثال ..

حين جلس خاطب نجدة يطلب أن تأتى بالعشاء .. عندما أحضرت الطعام : طبق المدمس والأرغفة الناشفة وشرائح الطماطم بالملح .. دعا زاهر امتثال دون أن يلتفت إليها ، أن تنهض لتتعشى ..

نهضت مستخزية ..عندما اخفضت رأسها للطعام تأمل أسيانا آثار الانكسار على وجهها..

تزايد عطفه عليها ..

ألا يسمح للمكتوى بالهجير أن يلوذ إلى مكان ظليل ...

ألا يحق لسجين القبو المظلم أن يتلمس طاقة نور ..

لن يكون للشوك حظ الورد .. هذه حقيقة ..

حقيقة أخرى : لن يتساوى كوثر الدنيا مع أوحالها ..

ألا يستطيع من لا يبصر غير الأفق الأسود أن يتشوف إلى صورة غنية بالألوان !

* * * * *

عندما تكلمت امتثال مع عين النفوس عن طلب سنوسى الزواج منها..

قالت عين النفوس :

- وماذا ينتظر زاهر لكى يوافق ؟

قالت امتثال :

- قال لزاهر انه سيفكر فى الأمر ..

سألت عين النفوس :

- هل ترغبينه ؟

- ربما .. لأنه ليس هناك أحدا غيره تقدم لى .. فمن يتقدم لواحدة فى مثل حالى غير انسان مثل سنوسى ..

أضافت :

- اريد أن أخفف الحمل عن أخى ..

تألمت عين النفوس .. قالت ..

- لكنى لم الحظ أى ضيق من زاهر بتحمله اعالتكما ..

- راتبه قليل .. يحرم نفسه الكثير من أجلنا .. فى العيد الفائت لم يشتر لنفسه سوى حذاء قديم من باعة الرصيف فى ميدان الموافى ..

بعشرة قروش ..

أضافت : ألحظ عليه الانكسار دائما .. أشفق عليه ..

صمتت عين النفوس تفكر .. قالت :

ـ دعى لى الأمر .. سأكلم زاهر ..

ـ لاتخبريه بشئ مما قلته لك ..

عند دخول زاهر البيت فى المساء .. نادته عين النفوس تدعوه لحجرتها .. تركت الباب مفتوحا .. وأجلسته على الحصيرة معتذرة بعدم وجود مقاعد ..

ابتسم زاهر وقال :

ـ الحال واحد !

بينما راح زاهر يداعب الصغيرين .. مضت عين النفوس تفاتحه فى الأمر الذى دعته من أجله..

حين أنهت كلامها عن امتثال وسنوسى .. شكرها زاهر لاهتمامها بأخته وصارحها بأنه أولا لم يوافق على خطبة سنوس لامتثال .. لمهنته المتواضعة كحوذى .. وان كان سنوسى قد وعد بانه سيمتهن قيادة السيارات ، ورؤية زاهر للمسألة من وجهها الآخر وهى أخلاقيات السواقين .. التى تجعله لايطمئن على أخته فى معاشرتها لسائق .. ثم أنه كان من المفروض ان يعرف موقف صاحبة الشأن فى هذا الزواج .« لم يخبر زاهر عين النفوس بما شهده منذ ليال ، حتى لاتسئ الظن باخته »..

ثم انه خشى ، وهذا هو الأهم ، ان تظن أخته .. حال موافقته السريعة على زواجها .. أنه يريد التخلص منها ، بمجرد ان تقدم إليها سنوسى للزواج .. مع أنه .. على أى حال .. لايناسبها !

* * * * *

على رأس الزقاق لمح زاهر عند عودته فى المساء ، حشدا من الغرباء فى الزقاق .. بينهم رجال البوليس فى لباسهم الرسمى..

شق طريقه من جوار الحائط خلف الواقفين الذين يتطلعون فى فضول إلى تحركات رجال البوليس ، فى دخولهم وخروجهم من بيت خديوية ..دخل البيت ليجد عين النفوس تقف مع نجدة وامتثال قرب الباب المفتوح .. بينما كانت حسيبة خلفهن جالسة على درجة السلم ..

على وجوه الجميع كان يرتسم الوجوم والانزعاج ..

نظر اليهن زاهر مستفهما .. بادرته عين النفوس قائلة فى هلع :

ـ وجدوا خديوية مقتولة !

عند الزقاق توقف سنوسى بالحنطور عائدا فى المساء ... عندما رأى أحد العساكر واقفا على باب الأصطبل المغلق ، قبل أنه يدلف بالحنطور للزقاق .. سأل عبده الويشى فى وقفته على باب المقلة بملامح متوترة :

ـ ماذا حدث ؟

ـ قتلوا خديوية !

لم ينتبه سنوس للخشونة فى صوت عبده الويشى .. لكنه خيل إليه أنه يلمح اصفرار وجهه ..

لم يدخل سنوس بالحنطور إلى الزقاق .. تركه واقفا على جانب الشارع ..

ولم يلحظ أحدا اختفاؤه !

*****

سرى نبأ اختفاء سنوسى فى الزقاق .. وانه المسئول عن مقتل خديوية..!

كان عبده الويشى يغذى الشائعة لترويجها .. يقول :

ـ من غير سنوس المستفيد من قتل خديوية !

يدور الكلام عن النقود الكثيرة التى كانت تكتنزها .. وتتحزم ببعضها فى صحوها ومنامها ..

يقول عبده الويشى :

ـ طبعا .. كان سنوس يعرف بأمر النقود .. فهو الوحيد الذى كان يصعد إلى شقتها كل ليلة ليعطيها ايراد الحنطور .. ثم كان يبيت فى الإصطبل مما يسهل له القيام بفعلته !

وكان أنور حجى يوجه خطابه إلي عبده الويشى كلما رآه واقفا على باب المقلة .. يتساءل :

ـ لماذا هرب سنوس ؟ .. ماالذى أخافه ما دام بريئا ؟

يضرب كفا بكف قبل أن يدخل دكانه :

ـ موقفه غريب فى الحقيقة !

وفى يوم آخر يقول أنور حجى لعبده الويشى .. كأنما هداه تفكيره إلى جديد :

ـ لو أن القاتل سنوس .. فلماذا عاد ليلتها بالحنطور للزقاق ؟..

لقد قالوا ان باب الإصطبل كان مفتوحا طوال النهار بعد خروج سنوس بالحنطور .. وهذا ما أثار ظن الجيران بان شيئا قد حدث ..

وكان عبده الويشى يستمع إلى كلام انور حجى ويهز رأسه ولايتكلم..

وقالت عين النفوس لامتثال ونجدة :

ـ اين ذهب سنوس ؟ لماذا اختفى ؟

كان الكل واجمين تتملكهن الحيرة ..وكان الكدر والهم والضيق يرتسم على وجه امتثال ..

كانوا قد اغلقوا بيت خديوية بالشمع الأحمر .. ولم يعد هناك عسكرى يقف على باب الإصطبل .. واختفت عربة الحنطور بالحصان ، لايدرى أحد أين ذهبوا بها ..

قال زاهر لأختيه ولعين النفوس :

- أشك فى علاقة سنوس بالحادث .. فهو فى تقديرى لن يجرؤ على ارتكاب هذه الجريمة ..

أردف يقول :

- سوف يتخلص رجال المباحث من المسألة - كعادتهم ليريحوا أنفسهم من عناء البحث عن مرتكب الجريمة - بالصاق التهمة بسنوسى الهارب .. دون دليل أو قرينة تثبت صحة الاتهام بعد عجزهم عن الكشف عن غموض الحادث والتوصل إلى الجانى ..

كانت أمتثال دائمة الصمت .. تسمع كلام من هنا وكلام من هناك ..

ولاتنطق بكلمة ! .. فقط حين تجد عين النفوس فى حجرتها تفيض فى التحدث معها لتسرى عن نفسها بعض الشئ ..

* * * * *

وقف محمود العزبى فى زى كونستابل المرور ، راكبا موتوسيكله أمام المقلة .. يحكى لعبده الويشى عن حادث غرق المطربة أسمهان في ضحى اليوم .. بينما كان زاهر يقف على رأس الزقاق :

- كنت فى المرور هناك بين طلخا وقرية شرنقاش المجاورة التى غرقت عندها أسمهان .. رأيت الحادث بعينى .. انحرفت السيارة التى كانت تركبها أسمهان مع صديقتها وسقطت فى الترعة .. الأهالى جاؤوا من

كل ناحية .. السائق الذى نجا بالقفز من السيارة قبل سقوطها قال انها أسمهان ! .. لم يصدق الأهالى أن أسمهان الشهيرة الجميلة تغرق فى الترعة ! ..بدأوا يجمعون قش الأرز من هنا ومن هناك وغطوا جثتها هى وصديقتها ووقفوا حول الجثتين حزانى .. وبعض النسوان كن يبكين ...

لم تكمل أسمهان دورها فى فيلم « غرام وانتقام » الذى كانت تمثله مع يوسف وهبى ..

يحكى محمود العزبى دون تأثر كأنما يتكلم عن شئ عادى لايثير الأسى..رمق زاهر بنظرة استعلاء أتبعها بابتسامة ساخرة ..

أدار محرك الموتوسيكل وانطلق يفرقع به مختالا ..

ظل زاهر واقفا تثير خياله أغنية اسمهان : « دخلت مره الجنينه ».. استدار ليدخل البيت يغمر الحزن قلبه ..

*****

كانت الحجارة القديمة تتساقط على أرض الزقاق من الطابق الفوقى لبيت طلبة العزبى الملاصق للمقلة .. مال من جوارها زاهر ليخرج للشارع..

كان عبده الويشى يقف عند حائط المقلة فى الزقاق يصيح فى القائمين بالهدم ، بتوقى الحذر فى عملهم .. حتى لاتقع اصابات لعابرى الزقاق الضيق ..ويوكد محذراً :

ـ لا أريد مشاكل !

أدرك زاهر أن البيت صار ملكا لعبده الويشى ..

فى المساء كان زاهر يسير متمهلا فى شارع البحر المظلم الخالى ، بعد

لقاء بينه وبين نواسانى ..كان يلتقى بصديقه وبه من الأعياء النفسى ما يثقل قلبه .. ليجد عنده صدر رحيب يسع شكواه ويخفف عنه زمنه الموحش .. يهدهده ويلمس أعماقه بحنوه وعطفه ..

كان المقهى الواسع الملاصق لدار سينما رويال يطلى أبوابه الزجاجية المغلقة باللون الأرزق ، كما هو الحال فى كافة مقاهى ومتاجر المدينة ، توقيا لغارات الطائرات الألمانية ابان الحرب العالمية الثانية ..

وكانت دار السينما قد تحولت منذ بداية الحرب إلى عنابر يسكنها عساكر الانجليز ، بعد أن قدمها صاحبها الانجليزى « راؤول » للجيش الإنجليزى ..

وكان مشهدا مألوفا أن يرى المارة القليلون أمام دار السينما فى الليل ، بعض عساكر الإنجليز يقفون باجسادهم العارية الحمراء ، عدا «الشورت »الكاكى .. وفى أيديهم اكواب كبيرة من الزنك ذات الأيدى .. يحتسون فيها الجعة ويتضاحكون ويتسامرون فى رطانة أجنبية ..

فيما كان زاهر يجتاز الطريق مارا بدار السينما ، شاهد منظرا أثار غضبه واشعل الدم فى عروقه .. كان هناك أربعة من عساكر الإنجليز يتحلقون حول فتاة مذعورة تحاول الافلات منهم دون أن يصدر منها صوت ... جذبها أحدهم محاولا جرها إلى داخل الدار والفتاة تقاوم فى صمت للتخلص منه ..

دون تردد وجد زاهر نفسه يندفع نحوهم ويقذف بنفسه يحيط الفتاة بذراعيه محاولا تخليصها من بينهم .. لكمه أحدهم فى جانب رأسه ، وتبعه آخر بلكمة فى وجهه .. راح يضرب بيديه الاثنتين اكتافهم مستميتا بجانب الفتاة لايتزحزح عن مكانه ! ..

فجأة رفت حولهم فرقعات كرباج حوذى حنطور ، كان قادما بعربته.. وراح يهوى بالكرباج على ظهور العساكر العارية ويحدث فرقعات فى الهواء لإرهابهم ! .. ولايدرى زاهر كيف خرج مع الفتاة من المعركة » .. فقد انفض العساكر من حولهما فجأة واختفوا داخل دار السينما ، تاركين أكواب الجعة الفارغة ملقاة على أرض الشارع .. واختفت عربة الحنطور .. وركض الإثنان ليدخلا شارعا جانبيا مظلما.. وقالت الفتاة لزاهر انها خادمة كانت فى طريقها إلى دكان الكواء لتحضر بذلة مخدومها .. ونصحها زاهر أن تسلك فى العودة طريقا آخر..

تركها عند نادى البحراوى الرياضى وانحدر فى الشارع إلى طريق البيت .. فجأة وجد سنوسى يقف بعربة حنطور أمام محل « راندوبولو الحلوانى » تهلل وجه سنوسى حين وقع بصره على زاهر ..

قال فى حرارة :

- اوحشتنى يا أخ زاهر .. أوحشنى الزقاق !

- كيف حالك ؟

أشار سنوسى بيده المخضبة بالحناء نحو عربة الحنطور :

- كما أنا ! ..

نظر زاهر إلى الحصان يتأمله .. كان نحيلا نحيفا بارز العظام يكاد يسقط لشدة ضعفه !

سأل سنوسى مستغربا :

- كيف يقدر هذا الحصان على حمل الركاب ؟

ابتسم سنوسى قائلا :

- لم أجد غير هذا الحنطور أشتغل عليه .. إلى أن يوسع الله على

صاحبه فيغير الحصان ! .. كادوا يقتلونك .. فهم سكارى !

عرف زاهر من ذلك الحوذى الذى هاجم عساكر الانجليز ، وفر تجاه شارع المدير المجاور ..

عاد سنوسى يقول : خاطرت بنفسك وسط هولاء الكلاب .. ما الذى جاء بهم ليسكنوا دار السينما .. ماذا جاء بهم أصلا للمنصورة؟ .. أعرف ان لهم ورشة لصيانة الطائرات أمام قرية شاوة القريبة .. ملعون أباهم !

بدا زاهر متأثرا بموقف سنوسى وهو يسأله فى مودة :

- لماذا هربت ؟ .. أعرف أنك لم ترتكب الجريمة ؟

- خائف ..

- ممن ؟

- المباحث .. يلجأون للتعذيب .. لاجبار الشخص على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها .. حتى الآن لم يتوصلوا لمعرفة القاتل ..

قال زاهر :

- لن يفلت القاتل بجريمته .. مهما طال الزمن !

أضاف :

- يمكنك الاستعانة بمحام يحضر معك التحقيق ..

- من أين أجئ بالأتعاب !

- حاول ! .. ليتنى أسمع عنك اخبار طيبة ..

قال سنوسى :

- إلي أين أنت ذاهب ؟ .. اركب معى لأوصلك .. كنت ذاهبا إلى سكة سندوب لأسلم الحنطور لصاحبه ..

وقال :

ـ لازلت أحاول الحصول على رخصة القيادة .. !

*****

عندما اعاد عبده الويشى بناء البيت .. وألحق الطابق الأرضى بالمقلة .. قالت عين النفوس لزاهر متسائلة بينما كانت فى حجرته مع امتثال ونجدة :

ـ البيت الذى اشتراه وبناه .. ودكاكين الحلويات جنب المقلة .. كل هذا لعبده الويشى .. من اين جاء به ؟ .. لماذا نستبعد أن يكون عبده الويشى هو قاتل خديوية الذى استول على نقودها .

قالت حسيبة وهى تهبط السلم عندما سمعت عين النفوس تتكلم عن عبده الويشى تحكى عن الأيام القاسية التى عاشها قبل أن يحل محل أبيه فى المقلة بعد موته .. سقته زوجه ابيه المر عندما تزوجها أبوه بعد موت أمه ... كانت تحرض زوجها لطرد ابنه من الوقوف معه فى المقلة .. يرسله ليقف بعربة يد عند الكوبرى العالى يبيع اللب والسودانى .. يعود آخر النهار بحصيلة البيع .. يوم الجمعة كل أسبوع كانوا يرونه على رصيف المقلة حافيا يشمر جلبابه حتى ركبتيه .. يفرش اللب الأبيض على الرصيف ويسقيه بالجير والملح .. ينتظر حتى يجف ويعبئه فى المقاطف ليحمصه على صينيه المقلة والعرق يتساقط من جسمه تحت وقدة الشمس فى الصيف وحرارة المقلة الضيقة ... وفى أيام أخرى يقوم بتحميص اللب الأسمر والحمص والسودانى .. وبقية الأيام هناك عند الكوبرى العالى بعربة اليد مصلوب امامها طوال النهار ..

عقبت عين النفوس :

- دنيا ! .. يجيئوا ليروه الآن !

قالت حسيبة :

- وسيتزوج سميرة تلميذة المدارس المدللة التى تمشى وأنفها فى السماء .. من يصدق ؟!

حملت العبارة الأخيرة أثقالا من الهم والألم تصبها فى نفس زاهر ..

لم يكن يتعلق بالأمل فى سميرة .. فقد أغلق بابا على القلب ورضى بالعذاب .. وليس ثمة شئ غير العذاب !

تلك الفترة التى حاول على امتدادها النسيان ، منذ غزا الحب قلبه ، أحسها قد طالت كانها مائه عام ! .. على أرضها خطا آلاف الخطوات .. وليس يبقى غير أن يطوى الذكرى التى قضاها مع نفسه وحدها منفردا ، وليس مع من أحبها ..

كانت سميرة بعيدة عنه أقصى غايات البعد !

وقال لأخته أمتثال التى يدرك حبها لسنوسى مؤاسيا :

- أعرف رغبتك فى الزواج من سنوسى .. لكنها ارادة القدر .. ولعله خير لك !..

كانت صورة سميرة تناوش زاهر وتطول المناوشة .. يتهيأ له ان ثمة مناجاة هامسة بينه وبينها ! .. فى أوقات أخرى كانت الصورة تعبر خياله فى صمت .. لكنها ترجف قلبه باللوعة واللهفة والشوق .. تلك الخيالات كانت تستغرقه كالأحلام ...يصحو منها فيجد نفسه متراجعا مكبلا بالفقر وفقدان الأمل .. يتعذب ويهاجمه اليأس فى ضراوة .. لايجد غير السماء ، يتوجه صوبها ضارعا ينشد السلوى ..

*****

قالت عين النفوس لزاهر وهى تغمز بعينها لامتثال :

- سنوسى يشتغل الآن سائقا .. قابلته أمس فى ميدان المحطة يقف بسيارة الأجرة .. وكان عم فوزى سبرتو ينادى عند السيارة لركاب السنبلاوين والزقازيق ..

أضافت :

- سألنى عن امتثال .. قال انه يريد مقابلتك ليجدد خطبتها منك ..

حول زاهر رأسه نحو امتثال الواقفة بالقرب منه .. اخفضت رأسها فى حياء ..

قال لعين النفوس :

- دعى سنوسى يجئ...

*****

مضت عربة الحنطور بهم : زاهر وإمتثال ونجدة وأوصاف التى جاءت من نبروه .. لتشارك امتثال فرحتها فى ليلة زفافها ..

كانت امتثال صامتة لايدرى زاهر ماذا يدور فى رأسها .. أغلب الظن أنها سعيدة بليلة فرحها .. فالأفراح فى حياة مشيلاتها قليلة .. كانوا يقتربون من حى كفر الغجر المجاور لحى الحسينية .. ليحتفلوا فى شقة سنوسى بزف عروسته اليه .. فحجرة الزقاق هناك لاتتسع لمن سيجئ من المدعوين ..

عاد زاهر ينظر إلى امتثال يداهمه الألم : ليس غير ثوبين من الحرير فى قر الشتاء لم يدفع بعد اجر حياكتهما .. حملتهما نجدة على ركبتيها .. فما كان فى الوسع شراء ثياب من الصوف .

أدهش زاهر كثرة النسوة اللاتى جئن إلى حفل الزفاف الصغير فما كان لسنوسى أهل .. وما كانت أيامنهن قريبة له ..

خمن ان يكن زوجات وأقارب السائقين رفاق سنوسى .. الذين تحرجوا من الحضور إلي الشقة الضيقة .. وأنابوا عنهم نساؤهم مجاملة انسانية لسنوسى..

كان ثمة راقصة عجفاء تنتقل برقصاتها فى صالة الشقة وفى حجرتيها .. وحولها النسوة يصفقن ويغنين..

وجاءت حسيبة وعين النفوس يشاركان امتثال فرحتها .. زغردت عين النفوس وحسيبة .. ورأى زاهر - لدهشته - الدموع تلمع فى عينى عين النفوس..

أدرك رقة احساسها وحبها لأخته ..

حين تناقص عدد النسوة بانتهاء الحفل الصغير .. لم يزايل زاهر كرسى الخيزران الذى جلس عليه فى مؤخرة الصالة منذ دخل الشقة .. تخايله نظرة احدى المدعوات التى كانت تجلس بالقرب منه .. نظرة اشفاق طويلة اهتزلها .. ألفقر مظهره كانت أم لصغر سنه وحمله الثقيل ويتمه وأختيه الباكر .. فهى بدت كأنما تعرف !

قبلها وجد نفسه يقترب بلا ارادة من الحجرة التى دخلتها امتثال مع عريسها وانغلق عليهما بابها .. وقف بين نساء قليلات كن يتسارعن لاعطاء نقود للراقصة التى فرغت من رقصها .. ومدت يدها للواقفات تحصد « النقوط » وتلقى بنظراتها نحوه فى انتظار عطيته !

ارتجف مضطربا حين رأى عيون النسوة ترقبه ، لتحثه على العطاء !

لم يتوقع مثل هذه اللحظة التى يجهلها ولم يحسب حسابها !

مد يده إلى جيبه فى تردد والبرودة تشمل جسده .. سينقص مصروف البيت الشهرى الذى يحرص عليه ..

مرت لحظات طويلة قبل أن يتوجه خاطره إلى بيع ساعته التى اشتراها ـ بعد ما باع قبلها الساعة السابقة عند مرضه ـ ليستعين بها فى معرفة الوقت ، خاصة فى الصباح ليذهب إلى العمل ..

انحدرت رأسه مستغرقا فى مشاعره .. لا يدرى ماذا ينتظر بعد .. هزت اوصاف كتفه فى رفق تنبهه ليعودا إلى البيت .. فى الطريق قال لأختيه أنهم سينقلون مقابر المسلمين خارج المدينة .. وعليه أن يذهب ليجمع عظام أبيه وأمه من هناك .. ليضعها فى مقبرة جديدة ..

قالت نجدة :

ـ سيرتاح سنوسى وامتثال من رؤية المقابر المقابلة لبيتهما !

قالت أوصاف :

ـ لا أدرى ماذا أعجب سنوسى فى هذاالحى .. هناك حى الحسينية.. الشقق فيه كثيرة ..

قال زاهر :

ـ يسترخص سنوسى المسكن الذى اختاره .. الكسب قليل ..

قالت نجدة :

ـ ستتهنأ امتثال معه .. انه طيب القلب ..

قال زاهر :

ـ هذا ما أتمناه لها ..

وقال لأوصاف :

ـ سأسافر معك فى الغد لازور زوجك المريض ..

قالت نجدة فى حياء :

- يقولون ان نبروه مشهورة بالفسيخ ..

ابتسم زاهر :

- سأجى لك بأكلة !

تمتمت نجدة بالدعوات لأخيها ..

* * * * *

لم يدر زاهر وهو ينقل - مع دفقة الأسى - عظام أمه للمقبرة الجديدة .. أن السؤال القديم التائه مع الزمن ، سيغزو نفسه من جديد بقوة ..

واسرع فى اليوم ذاته ليركب قطار الدلتا من مدينة طلخا .. فى الطريق إلى أوصاف ..

* * * * *

سمع زاهر من حجرته عين النفوس تقول لنجدة وهما جالسان فى حوش البيت :

- فرح عبده الويشى الليلة .. الفرحة لا تسع وسيلة .. تروح وتجئ بين بيتهم وبيت عريس ابنتها .. تساعد فى فرش الأثاث !

كان زاهر راقدا ساعة القيلولة فى يوم العطلة الأسبوعية ..

تقلب محموما .. نهض يحس بأن الدنيا تدور به !

سمع صوت عين النفوس تحكى لنجدة :

- سيأتى عبده الويشى بالعالمة حميدة أم زيتون .. أجرها مرتفع .. شهرتها فى المنصورة والبلاد المجاورة ..

ارتدى ثيابه وصخرة ثقيلة تجثم على صدره ..

خرج وغيمة كثيفة تحجب عن عينيه الطريق ..

إلى أين يريد الذهاب ؟

إلى أى حد يستيقظ فيه الساعة الحب الذى حاول طويلا أن يئده ..

قادته قدماه إلى شارع البحر الهادئ .. تعلقت عيناه بصفحة النهر .. رآه محيطا هائجا يسمع هدير أمواجه .. ارتفعت عاليا موجة هائلة تطوله وتطويه فى الأعماق ..

سميرة تنبثق بجانبه .. عيناها اللوزيتان تشرقان حوله .. فى لهفة طاغية مد يده نحوها .. تحركت قدماه واقترب منها .. لتعانق روحه روحها .. ليبكى متوسلا على صدرها يطلب الرحمة ! .. يكاد يصرخ عذابا .. لا يهمه أن يسمعه أحد ..

بلا وعى .. سار على الرصيف الخالى لا يكاد يرى أمامه .. يبكى قلبه فى يأس وحنين ولوعة ..

روعته مشاعره الداهمة ... لم يحسب يوما أن يتهدم هكذا فيعدم القدرة على مواصلة الحياة ! ... لم يتوقع يوما انه سينتهى إلى العدم حين يجد سميرة تغيب عن وجوده ! .. تفارق خياله ـ مع عذابه بالخيال ـ بامتلاك آخرلها ! .. تبعد عنه فى طريق لم يتصورها يوما تخطو فيه .. كأنما كانت ستبقى له أبدا فى جنة أحلامه ! .. كأنما كانت ستظل طوال الزمان تبسط ظلها على حياته ليبقى عمره فى حالة اعتناق كامل لغرامه بها .. لا يبصر غيرها ..

دب الإعياء فى جسده .. ودلو يرتمى على الأرض ..يستسلم لها راقدا .. يتمدد فى انتظار لا شئ !

عند دار سينما عدن لقى نواسانى خارجا من الشارع المؤدى إلى بيته.. وجد نفسه يرتمى على صدر صديقه :

ـ اذهب بى إلى أى مكان !

كان كطفل يلقى أمه بعد أن تاه فى زحام الطريق !

ـ تعال .. سنذهب إلى حجرتى ..

أمام البيت المتهالك اشار نواسانى ـ ليخفف عن زاهر بعض الشئ ـ إلى اللافتة التى تعلو الدكان المغلق أسفل حجرته :

ـ انظر .. صاحب دكان الفول يكتب اسمه « سيد » فقط .. والى جانبها رسم قط يعنى « سيد القط » .. لماذا لا تبتسم ! ينقصنا فى هذا المبنى العجيب لافتة اخرى عليها اسم حسانين .. ورسم الفار ! لماذا لاتبتسم !

صعدا السلم المتآكل :

ـ عندى فوغراف قديم اشتريته أمس فقط .. سأسمعك اسطوانة عبد الوهاب « يا جارة الوادى » .

« .... جمع الزمان فكان يوم لقاك !! »

حاجز زاهر بين عينيه والدموع ...

قال محطم النفس :

ـ تزوجت سميرة .. تزوجت ..

قال نواسانى يهزه الاشفاق والعطف :

ـ وماذا كنت تنتظر غير ذلك .. هل صارحتها بحبك ؟ لم تجرؤ بالطبع .. ولو جرؤت ماذا كنت تتوقع ! .. كان يجب الا تقع فى هذا الوهم ! .. فهل يسمح لك واقعك أن تبوح بحبك لمن أحببت ؟!

ـ لم استسلم للوهم أبداً ... فالحقيقة أعرفها منذ البداية ..

ـ وتركت نفسك فريسة للعذاب !

ـ آه يا صديقى .. آه من شقائى ! .. اننى تعس .. حزين .. وحيد .. برغم انى لا اعيش وحدى ..

ـ أفهمك !

ـ أحس كأن الدنيا كلها تخلت عنى .. وتركتنى أواجه مالا أحتمل !
.. انى بائس .. معذب بحب يعصر روحى .. ولا أجد فيه أملاً ..

بدا زاهر كأنه لا يحدث شخصا .. انما يحدث نفسه ! .. كأنما لا يجد غير نفسه ! .. كأنما اليأس يبلغ به حدا يشعر معه بأنه لم يعد ثمة ما يربطه بالحياة وسط أحزانه المضطربة .. واحساسه الأليم بضعف الحيلة وفقد المجالدة ! .. واستحالة أن يتصور سميرة فى مكان ما على الأرض، دون أن يكون هو معها !

امتلكت نفسه لهفة عارمة لرؤية سميرة قبل أن تذهب ! لكن كيف يتأتى ذلك !

تململ محطما فى مقعده يغوص فى لهب يحرق روحه !

جلس نواسانى على الحصيرة قرب المقعد الوحيد الذى يجلس عليه زاهر .. اكتفى أن يتطلع إلى صديقه بالصمت الذى يحمل عاطفته الصادقة تجاهه .. وعجزه عن إتيان شئ يجد فيه العزاء له .. ودأن يقول له :

ـ انك تعذب ذاتك يا صديقى بلا أمل فى شئ ! انك تزيد من عذاب روحك بلا طائل .. انك تظلم قلبك أبدا .. لا ينقصك إلا أن تهيم على وجهك فى صحراء قاسية حتى تهلك .. ألا ترحم نفسك ؟!

يعود نواسانى يقول فى نفسه : كيف سيرحم نفسه والقلب لا يرحم!.. هل يملك ما يهب به لنجدة صديقه !

ـ أريد فراشا أرقد فيه .. هل اجد عندك مكانا ؟

أدار نوسانى وجهه عن صديقه .. قبل أن تفر من عينيه الدموع .. ودرجت بزاهر فى الصباح عربة الحنطور للبيت فى رفقة نواسانى .. وكان يأسى لحاله ..

قال له فى الطريق :

ـ يوم شكوت لى ما تعانيه من هذا الحب المسيطر .. رأيت بعينى تلك النهاية .. فليست عندك فى مثل حالتك يا صديقى قدرة ما تؤهلك لبلوغ الغاية ونيل الثمرة .. انى اتألم من اجلك .. انى والله حزين يعز على أن ارآك تائها بين واقعك وبين الحقيقة المؤكدة سالبا من ذاتك الإرادة الصلبة تجاه أمل الحياة !

* * * * *

تحرج نواسانى وهو يقول لزاهر :

ـ هل تزوجنى نجدة ؟ .. سأترك الحجرة الكسيحة وانتقل إلى شقة من حجرتين .. ألن تكفيا ! .. أليس من البؤس والتعاسة أن أعيش هكذا بغير أسرة ، دون اهتمام من أحد سواك !

رنا زاهر إلى نواسانى فى حب :

ـ هل تظننى لا أوافق .. أنت صديقى ..

ـ تاخذ رأى نجدة .. . أنتظرك غدا ..

ابتسم زاهر يسأل صديقه :

ـ لكن .. هل رأيت نجدة قبلا !

بدوره ابتسم نواسانى :

ـ يوم أوصلتك للبيت .. لم أنس لهفتها عليك بعد أن ظلت تنتظر رجوعك طوال الليل ... رقيقة ...حنون .. حساسة ... تستحق أن تعيش فى سعادة ! ... ستعيش وحدك يا صديقى .. بعدما تنتقل نجدة إلى بيتنا !

ـ المهم أن تسعدا بحياتكما !

ـ أضع عينى على شقة سنسكنها فى كفر البدماص .. حى يتوطن

فيه الفقر كأغلب أحياء المدينة .. فى بيت متواضع بناه صاحبه من جمع البيض فى القرى .. وجدت الشقة .. !

صمت نواسانى لحظة قال بعدها :

ـ أنا وأنت تتشابه ظروفنا الصعبة مع فارق بسيط لا دخل فيه لأحد منا .. وكأن الصدفة وحدها هى التى جمعت بيننا دون مقدمات فى صداقة أسعد بدوامها .. وكنت أود أن أراك تعيش حياة مختلفة ..

تنهد وقال :

ـ لا أريد أبداً أن أقنع نفسى أن الحياة تضيع سدى ، برغم المعاناة والتعثر فى ظل الفروق الطبقية .. والفجوة المخيفة بين العيش فى البيوت الغنية والعيش فى البيوت الفقيرة ! .. وعجز المؤمنين بنزاهة الضمير عن الوصول فى ايامنا القاسية إلى نعمة الفرص المتكافئة ... أنا وأنت تتعانق همومنا .. تتعانق همومنا حقا ..

* * * * *

لزم زاهر الفراش بحمى الملاريا التى داهمته أثناء العمل .

أسرع يومها إلى حجرته يرتعش.

لم يدر أحد بمرضه ، سوى عين النفوس التى استأذنته لتدخل حجرته .. حين عادت فى المساء ..

وبدأت ترعاه .. برغم تحرجه لوجودهما وحدهما فى الحجرة ..

كانت عين النفوس تترك ولديها عند جدتهما ، بعدما خلا البيت من امتثال ونجدة ... وكانت حسيبة تتبرم لشقاوة الولدين وتشبعهما بالشتائم طوال النهار ... تصيح فى عين النفوس ساخطة عند عودتها وتطلب منها أن تبكر فى الحضور لتريحها من عنائها مع ولديها .

لم تغادر عين النفوس البيت عدة أيام لتفرغ لزاهر .. وكان زاهر يرى

اهتمامها الزائد به فيتملكه التأثر .. ويلحظ قلقها عليه فيقول يطمئنها مبتسما :

ـ لا تقلقى ... انها مجرد ناموسة زارتنى .. فأصابتنى بالحمى .. لن تستمر الحالة طويلا ..

تقول عين النفوس :

ـ لابد للحالة من العلاج ..

قال :

ـ أتناول أقراص الكينين .. وصفها الطبيب لأحد زملائى فى العمل .

دارت عين النفوس فى الحجرة تبحث عن الأقراص :

ـ اين هى هذه الأقراص لأعطيها لك ؟

يبتسم زاهر :

ـ تحت المخدة .. آخذ منها ثلاثة اقراص فى اليوم .

بدا زاهر يحس بانكسار القلب .. لم يستطع أن يخفى ذلك عن عين النفوس :

ـ أتعرفين يا عين النفوس .. أحس باليتم يتجدد فى مرضى وأنا وحيد ..

قالت فى عطف :

ـ لست وحيدا .. قلوبنا معك ! ..

صمتت برهة وقالت :

ـ أترحم على أمك كثيراً ..

بان الألم على وجه زاهر : شقيت كثيراً وتألمت كثيراً .. ولم تشك يوما .. قالت : كان وجهها كله سماحة وطيبة ورضا وقناعة .. (قال زاهر كأنما يوجه الكلام لنفسه : أى مرض كانت تحمله حتى ماتت ؟ ..

لن أسـامح نفسى أننى سكت كل تلك السنوات دون أن أعـرف ! ..
سحبتنى الدوامة حتى القاع ..

نهضت عين النفوس تقول مشفقة :

ـ سأعمل لك شوربة خضار ..

ـ اشكرك .. لا اعرف فى الحقيقة ان كانت حالتى تسمح لى بالأكل.. ربما يؤخر الطعام شفائى .. لا تتعبى نفسك ارجوك كفاك أياما لا تخرجين فيها لعملك ..

ـ لا .. لابد من تناول شئ ساخن .. تقتات به ..

غادرت الحجرة وهى تقول :

ـ لا تشغل نفسك بالولدين .. فهما يلعبان فى الحوش ولن أتأخر ..

عادت عين النفوس مسرعة .. أفرغت الخضر فى حجرتها .. ودخلت عند زاهر تقول :

ـ لن تصدق ! ... أهالى ميت حدر كانوا يأكلون لحم القطط فى مطعم مرسى .. لابس العمامة الخضراء وصاحب اللحية الطويلة !

تطلع زاهر نحوها فى دهشة :

ـ ما الحكاية ؟

ـ مرسى يذبح القطط بدلا من الأرانب ليأكلها الناس .. البوليس يملأ الشارع ورجال الصحة .. قبضوا على مرسى وأغلقوا المطعم بالشمع الأحمر .

بينما كان زاهر مندهشا لكلام عين النفوس .. مضت تقول ساخطة :

ـ خيبة الله عليك يا مرسى .. تفعل هذا بزبائنك !

فجأة تغير وجهها وهتفت مذعورة :

ـ يا مصيبتى ! .. أنا والعيال كنا نأكل لحم القطط ؟!يا مصيبتى !

تحولت الى زاهر تضيف :

- كنت أشترى طبق الملوخية وأوراك الأرانب .. القطط ! مرتان فى الأسبوع.. لعنة الله عليك يا مرسى .. أتعشى أنا والعيال .. لانشغالى طول النهار خارج البيت وعدم الطبخ .. كنت أسترخص الأكلة .. آه يا غشاش يا مرسى !

لم يمنع زاهر نفسه من الضحك لطرافة الموقف .. بينما اخذت عين النفوس تحكى :

- قالوا ان الملعون كان يصطاد القطط التى تدخل المطعم .. ويحبسها بركبته خلف البنك ويذبحها .. ويغش الزبائن بلحمها مع الملوخية .. الملعون!

تململ زاهر فى رقدته قائلاً :

- غياب الضمير .. آه من غياب الضمير !

أخذت عين النفوس تردد :

- توبة عن أكل المطاعم .. توبة ! .. سأرجع للولدين ساعة العصر كل يوم اطبخ لهما لقمة ساخنة .. حتى ولو كانت فول منبت ! .

فجأة وضعت يدها على بطنها وتقلص وجهها .. كأنما توشك أن تتقيأ !

كان زاهر يرقمها مبتسما ويهز رأسه .

قال فجأة :

- تتزوجيننى يا عين النفوس ؟

حملقت نحو زاهر تأخذها المفاجأة .. لتخفى خجلها استدارت لتغادر الحجرة :

- سأعمل لك شوربة الخضار ..

ـ انتظرى ...

توقفت ووجهها صوب الباب .. قال زاهر:انظرى الىّ لا تخجلى .. الوحدة تثقل على .. لا أدرى إلى متى سأحتملها ...

حنت عين النفوس رأسها .. تمتمت فى خجل :

ـ لكن ..الولدان !

ـ سآخذهما فى حضنى .. بدلا من امتثال ونجدة ..

غمغمت فى ارتياح :

ـ خشيت أن تقول لى أتركيهما لأمك .

نادى زاهر الولدين ليدخلا الحجرة .. ترك سريره وأقعى بينهما .... ضمهما إلى صدره .. قال لعين النفوس :

ـ دبرى لنا سكنا على قدر الحال ..

أضاف مبتسما :

ـ واهجرى السندال !

وهو يغادر الزقاق بعد أيام ملأت عيناه الدموع ..

يا سميرة ! .. يا من لا تسمعنى ! ... أخرج من الزقاق يا من لا تعرف انى احببتها كل الحب .. وما كان لمثلى أن يجرؤ على المكاشفة ! ... أى هم وأى تعب وأى أحزان كانت تملأ نفسى ، عندما افكر أننى .. اذا لقيتك يوما .. سأبوح لك بسرى الدفين ! ... وما كنت سألقى غير الإعراض والازدراء ! .. يا سميرة ! ...أشقانى حبك وأنت بعيدة كأنك لاتعيشين تحت سماء الزقاق لاتدرين بى ! .. لاأقترب منك ، فلاقدرة أمتلكها ! .. لاصوت يناديك لتسمعينى ، فمن أين يأتى الصوت ! .. حبك يسرى فى روحى مخلفا الألم والحنين والشجن .. هل سيموت الحب بمفارقتى الزقاق؟ ... هل يموت الحب لأنجو من أسر العذاب ؟! ... أدع

لى يا سميرة !!

* * * * *

دعاه نواسانى لحفل غنائى يقيمه نادى الموسيقى فى شارع البحر.. قال لزاهر :

- سنسمع مطربا ناشئاً ... صوته دافئ فيه شجن !

اغنية جديدة لإم كلثوم غناها المطرب هناك: « غنى الربيع بلسان الطير » ... ردد كثيراً مقطع « وانت يا غايب عن الحبايب » ... غرق قلب زاهر فى الحزن ولوعة الذكرى ...

تندت عيناه بدموع لم يستطع اخفاءها عن عين نواسانى ..

وهما عائدان فى شارع البحر الهادئ بعد منتصف الليل .. قال نواسانى :

- ألا زلت تحبها ؟

صمت زاهر طويلا مشحونا ..

قال نواسانى :

- حب من جانب واحد .. ألا زلت تعذب نفسك ؟!

قال زاهر فى شقاء :

- احاول أن أنسى فلا أقدر !

زفر زفرة حارقة ..

قال نواسانى :

- هل تحول الحب الذى حرمت منه إلى حب العمر .. لتظل شقيا به .. أننى أرثى لك يا صديقى المسكين !

افترقا عند فندق وندسور .. لينحدر زاهر من ناصية الفندق وحده .. فى الطريق إلى ميت حدر ..

تستمر اللوعة ... يشتعل الحنين .. يطول الشوق والتمنى ... فأين يهرب ؟

كانت خطواته مرهقة حزينة .. هل سيظل حبه فى صدره يملأ وجوده لحظة فلحظة بقوته وعنفوانه ؟ .. ألن يستطيع التحرر من وطأته ؟

عندما دخل البيت قابله الضباب يكسو كل شئ ...

غير أن ابتسامة عين النفوس أنعشت نفسه قليلاً .. ودأن يرتمى فى حضنها الحانى لا يفارق ..

*****

فى ميدان المحطة قابل زاهر سنوسى ينتظر الركاب بسيارته ...

سأل سنوسى عن فوزى سبرتو ، لماذا لم يره واقفا عند قهوة اللبن كالعادة ، ينادى على الركاب ..

قال سنوسى :

- مات ..

- لا اله إلا الله .. متى ؟

- منذ يومين .. أكل السبرتو الأحمر كبده ... كان يقف بجانب السيارات فى انتظار تحميلها بالركاب.. سقط فجأة ..

قال زاهر فى أسف :

- نهاية متوقعة .. مسكين ربما كان يفرط فى شرب السبرتو لاعتقاده بأن السكران أقل شعورا بحدة الواقع !

قال سنوسى :

- يذكرنى بعلى فسّو .. أتعرفه ؟

- رأيته كثيرا فى شارع السكة الجديدة ..

- يد من السبرتو الأحمر الذى قصف عمره .. كان يقف دائما فى

الليل على رصيف شارع السكة الجديدة وفى يده زجاجة السبرتو .. كنت أشتغل أيامها صبيا فى دكان جناح السماك على ناصية الشيخ صيام .. بعد أن يفرغ من شرب الزجاجة التى يشتريها بثلاثة قروش ، يكسرها على حافة الرصيف .. ويقف ممسكا برقبتها المسنونة سكرانا يتطوح .. يقطع الطريق على الناس فى الشارع محمر العينين ..يزعق مهددا .. وكنت أخاف فأتدارى داخل الدكان أنا والمعلم جناح .. قطع دابر بائع العصافير المذبوحة .. فلم يعد يمشى فى الشارع كل ليلة يزعق على العصافير المعلقة فى الحبال « فيجا فيجا » وبهيجة الجميلة بائعة الفول السودانى المعروفة لزبائن المقاهى ... جرى وراءها ذات ليلة برقبة الزجاجة لأنها نادت بجواره على بضاعتها قبل أن تدخل قهوة عباس

أخذ سنوسى ينادى ركاب السنبلاوين بصوته الخشن للحظات .. وعاد يسرد حكايته :

ـ فى أحد الليالى ... كان على فسّو فى سيرك الحلو بالحسينية يتفرج على حسن الحلو وهم يضعون حجر الطاحونة على صدره .. فجأة وقف مهللا يزعق بأعلى صوته فى إعجاب .. وسقط ميتا ..

قال زاهر آسفا :

ـ يرحمه الله فوزى سبرتو .. عقب سنوسى قائلاً : كان يدخل ويخرج من الزقاق هادئا لا يحس به أحدا ولا يكلم أحدا ولا يلتفت كأنما لا يعنيه شئ ... كان يصطاد الركاب من عند قهوة اللبن ناصية السكة الجديدة قبل أن يذهبوا إلى محطة السكة الحديد المقابلة .. ليركبوا القطار ..

*****

حين جاءت امتثال لزيارة زاهر تحمل رضيعها .. سألها زاهر عن حالها مع سنوسى فطمأنته :

ـ سنوسى طيب القلب .. يحتاج إلى الحنان ..

قال زاهر فاهما :

ـ محروم منه منذ ولادته أعطيه له !

لم يتكلم عن نشأة سنوسى اللقيط فى ملجأ الأيتام .

وتمتم فى نفسه : وأنت يا أمتثال .. من أعطاك الحنان .. أب تخلى بالرحيل فى طفولتك .. وأم مشغولة يكسرها الفقر ويذلها القهر ؟!

ومازحت عين النفوس امتثال قائلة :

ـ هل لا يزال سنوسى يحنّى يديه !

ضحكت امتثال وقالت :

ـ لن يترك هذه العادة أبداً ..

أضافت فى سذاجة :

ـ انا مستغربة .. كيف كان يفعلها قبلا دون مساعدة ؟

قالت عين النفوس مازحة :

ـ لابد أن جنيا كان يساعده !

ابتسم زاهر وقال لامتثال :

ـ طبعا أنت التى تقومين الآن بهذه المهمة !

ـ يحضر لى الحناء من الدهمشاوى العطار فى ميدان الطميهى ويقول انها حناء لا مثيل لها ! .. أعجنها وأضعها له قبل أن ينام .. واربط يديه بالخرق حتى الصباح ..

قالت امتثال لزاهر :

ـ كنت فى الزقاق أمس ... لاستأجر الحجرتين من خالتى حسيبة ..

البيت الذى نسكنه سيهدموه لتوسيع الشارع ..

قال زاهر فى ضيق :

- يحرمون الفقراء من المأوى لتوسيع الشارع .. يا للعدل !

هز رأسه فى اسف وقال :

- ستعودين إلى الزقاق ؟ ... لا بأس .. بدلا من مهانة التشرد والاقامة فى العراء عند ازالة البيت ..

اضاف فى مرارة :

- ألستم فقراء !

صمتت أمتثال ثم قالت :

- رأتنى سميرة بنت طلبة العزبى من شباك بيتهم .. صاحت فى فرحة: - إمتثال !... انتظرى ..

وقفت مندهشة مستغربة .. لا اذكر أن لسانى خاطب لسانها مرة أيام الزقاق .. احتضنتنى وفى عينها دموع : « يا ريحة الحبايب » .. لا أدرى أى أحباب تعنى ..

بينما تملكت زاهر الدهشة هاجمته اللوعة ..نهض ودخل حجرته ليخفى جرح قلبه ..

أكانت سميرة تحبه ولا يدرى ؟!

هل ضاعت السنوات والأمل فى جواره .. يخاف أن يخطو خطوة .. مقهور الإرادة ؟

ألجراد ..

إنكسار الأحلام ..

الخوف الثقيل ..

ضياع الطريق ..

للكاتب :

أيام من العمر	رواية	دار الفكر الحديث
الحياة أمرأة	قصص	دار الفكر الحديث
الأيام الضائعة	قصص (طبعتان)	دار الفكر الحديث
ارواح وأجساد	قصص	دار الفكر الحديث
حب وحصاد	قصص	دار الفكر الحديث
الإصبع والزناد	قصص	المؤسسة العامة للتأليف والنشر
دماء فى الوادى الأخضر	رواية تاريخية	دار الفكر الحديث
الأجنحة السوداء	(طبعتان)	لجنة النشر للجامعيين
الأعمى والذئب	(طبعتان)	دار الأمل
الحب فى أرض الشوك	رواية	سلسلة كتاب اليوم
العشق فى وجه الموت	قصص	دار المأمون
حصاة فى نهر	قصص	الهيئة العامة للكتاب
البحيرة الوردية	قصص	دار المعارف
نزيف الشمس	قصص	دار المأمون
لعبة الثعالب	مسرحية	الهيئة العامة للكتاب
سقوط لحظة من الزمان	قصص	الهيئة العامة للكتاب
الرقص على الحبال	مسرحية	الناشر العربى
هزيمة ملك	رواية تاريخية	الهيئة العامة للكتاب
حكايات الحى القبلى	مسرحية	دار الإشعاع
زائرة الليل	قصص	دار الإشعاع
احضنوا الشمس ـ المولود المفقود	مسرحيتان	اتحاد الكتاب
من أوراق العمر	لمحات من السيرة الذاتية	نادى القصة
حديقة الحب	مسرحيات	دار الإشعاع
عصف الرياح	قصص	دار النيل للنشر
الهشيم	رواية	دار النيل للنشر

قيد النشر

الفوانيس	مسرحية
الفأس والبشر	ملحمة روائية في خمسة أجزاء
ايقاع المغيب	قصص
مشاهد من صفحات قديمة	قصص

رقم الإيداع بدار الكتب ٨١٠١ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى للدار / ٦ - ١٣ - ٥٤١٤ - ٩٧٧

الناشر
دار النيل
للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شارع عبده بدران
م الباشا - المنيل
ت : ٣٦٢٢٥٧٨